الحضارة الغربية

بنيتها وتأثيراتها علينا

دراسة ونقد

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ-٢٠٢٣م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

Kitab ismi:	El-hadaratul garbiyye ve bunyetuha ve tesiruha aleyna.
Yazar:	Ghazı Altoba.
baskı yılı:	2023
birinci baskı	
tüm baskı hakları mahfuzdur	

تركيا - إسطنبول

00905378167783 :

00902125146104 :

www.dar-alusool.com

info@dar-alusool.com

daralusool - usool2017

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMIYAH

Balabanağa Mah. Büyük Reşitpaşa Cad. 16B/15,
Fatih - İstanbul

د. غازي التوبة

الحضارة الغربية

بنيتها وتأثيراتها علينا

دراسة ونقد

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMIYAH

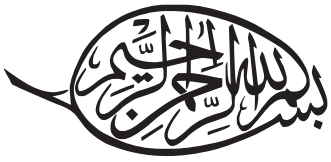
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]؛ أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالةٌ، وكل ضلالة في النار.

من المؤكد أن الحضارة الغربية كانت هي المؤثر الأكبر خلال القرنين السابقين في كل تفصيلات حياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإدارية والثقافية إلخ...، لذلك ألفت هذا الكتاب بعنوان: «الحضارة الغربية: بنيتها وتأثيراتها علينا دراسة ونقد» من أجل تجلية حقيقة الحضارة الغربية، وفهم كيفية تشكلها، ومبادئها، ودراسة بعض تأثيراتها علينا ومدى صوابية بعض الأحكام التي أسقطها أتباعها على حضارتنا وبعض أوضاعنا السياسية والحضارية.

وأنا أعتقد أن وعي حقيقة الحضارة الغربية، وفهم مبادئها التي قامت عليها، وإدراك أنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي شكلت صورتها هو واجب الوقت، لأن

هذا الوعي والفهم والإدراك يشكل المرحلة الأولى التي يجب أن يمتلكها كل مسلم من أجل أن يحسن التعامل مع هذه الحضارة الغربية التي أصبحت مفرداتها وأقوالها، تدخل عقولنا وقلوبنا وتؤثر في أسرنا ومجتمعنا وكل مجالات حياتنا، ومن أجل أن يحسن الأخذ والرفض منها، لذلك قسمت هذا الكتاب إلى قسمين:

الأول: بنية الحضارة الغربية.

الثاني: تأثيرات الحضارة الغربية علينا.

وجاء القسم الأول في خمسة فصول، تحدثت في الفصل الأول عن المكونات التاريخية التي ساهمت في تشكيل الحضارة الغربية، فكانت خمسة مكونات، وجعلتها في خمسة مباحث، هي: المكون اللا ديني، المكوّن العلمي الإسلامي، المكوّن الوثني، مكوّن الغنى الاقتصادي، الطبقة البرجوازية.

وقد تحدثت في الفصل الثاني عن مبادئ الحضارة الغربية، فكانت ستة مبادئ: العلمانية، نسبية الحقيقة، المادية، تأليه الإنسان والشهوات، الليبرالية، البراغماتية.

ثم تحدثت في الفصل الثالث عن النظام السياسي في الحضارة الغربية، فجاء في مبحثين: الدولة الديمقراطية، والدولة المدنية.

وقد تحدثت في الفصل الرابع عن النظام الاقتصادي في الحضارة الغربية، فجاء في مبحثين: النظام الرأسمالي، والنظام الشيوعي من خلال آراء كارل ماركس.

ثم تحدثت في الفصل الخامس عن النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية، فذكرت في بداية الفصل أن الطبقة البرجوازية هي الأصل في تكوين النظام الاجتماعي، وكنت قد تحدثت عنها في مكونات الحضارة الغربية فلا حاجة لإعادة الحديث هنا، وقد تحدثت عن ثلاثة أمور لصيقة بالنظام الاجتماعي وهي: النسوية، والنظرية الجنسية عند فرويد، ولوائح حقوق الإنسان، وقد تحدثت عنها في ثلاثة مباحث، وقد زادت هذه المباحث صورة النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية وضوحًا.

انتقلت في القسم الثاني من الكتاب إلى دراسة تأثيرات الحضارة الغربية علينا، فجاءت في ثلاث صور:

الصورة الأولى: فرض نموذج الحضارة الغربية علينا، وهو ما أصبح يسمى (التغريب)، وقد مر هذا التغريب بخمس مراحل، وقد كانت حسب التسلسل التالي: القرن التاسع عشر، بعد الحرب العالمية الأولى، بعد الحرب العالمية الثانية، الصحوة الإسلامية، الربيع العربي.

ثم تحدثت عن الصورة الثانية من التغريب وكانت «تطويع النص القرآني لصالح الحضارة الغربية من خلال القراءات الحداثية» وجاءت في فصل فكانت قراءة الأنسنة لإزالة حاجز الإلهية والقدسية عن النص القرآني، وكانت قراءة العقلنة لإزالة حاجز الغيوب عن النص القرآني، وكانت قراءة الأرخنة لإزالة حاجز الأبدية عن النص القرآني، وجاءت القراءات في مبحث مستقل.

ثم تناولت كاتبين حداثيين هما: محمد عابد الجابري، ومحمد شحرور، في مبحثين آخرين، وبينت بعض مواقفهما وأحكامهما الحداثية الخاصة في صدد التعامل مع ديننا وتراثنا.

ثم تحدثت عن الصورة الثالثة من التغريب وهي إصدار أحكام خاطئة على تاريخنا وحضارتنا، وجاءت هذه الصورة في فصلين هما:

الأول: اتهام تاريخنا بأنه تاريخ استبداد.

الثاني: اتهام حضارتنا بأن عصورها المتأخرة عصور انحطاط، وفندت القول الأول وهو: أن تاريخنا تاريخ استبداد من قبل بعض دعاة الحداثة في بلادنا العربية، فجاء الرد في أربعة مباحث:

الأول: لماذا تحولت الخلافة من «الشورى» إلى «الوراثة»؟ وبينت فيه لماذا وقعت هذه الخطوة في تاريخنا، وعللت ذلك، ورأيت أنها كانت خطوة اضطرارية لجأ إليها معاوية ـ رضي الله عنه ـ ومعه عشرات الصحابة الآخرين ـ رضي الله عنهم ـ لأنه لم يكن أمامهم إلا أحد خيارين:

الأول: اقتلاع الدين والنظام والدولة في حال إجراء الشورى.

الثاني: المحافظة على الدين والنظام والدولة في حال القيام بالتوريث وتأجيل الشورى، لأن الدولة كانت مهددة من ثلاثة أخطار:

أولا: الخطر الشركي الذي قام بحروب الردة.

ثانيًا: الخطر الفارسي الذي اغتال عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ثالثًا: الخطر اليهودي الذي تمثل في عبد الله بن سبأ، وإشعاله الفتنة وقيادتها، وهي التي انتهت باغتيال عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ثم تحدثت في المبحث الثاني عن تشريح الاستبداد، وبينت فيه أن منظومة الاستبداد تحتوي على ثلاثة أطراف: المستَبِد، ثقافة الاستبداد، جمهور المستبَدين، وأن الإسلام لا يعرف الاستبداد، لأنه يقدم منظومة ثقافية مضادة للاستبداد، لذلك تستطيع أن تصف المسلم بأنه «ليس لديه قابلية للاستبداد».

ثم وضحت في المبحث الثالث الذي جاء تحت عنوان: «المستبدون والمواجهة: موسى نموذجًا» عن الحكمة من ورود قصة موسى عليه السلام في مواجهة فرعون، عشرات المرات في القرآن الكريم، وأن الحكمة من ذلك هي دفع المسلم إلى مواجهة الطغاة، وإعطائه العدة لتلك المواجهة، وإعطائه الأمل في الانتصار على الطغاة والمستبدين.

ثم بينت في المبحث الرابع دور الدستور والمؤسسات المدنية التي استحدثتها الأمة الإسلامية على مدار تاريخها من أجل تعطيل الاستبداد، ومحو آثاره ونتائجه.

ثم ختمت الكتاب بـ«الخاتمة» واستنتجت فيها حقيقتين عن الحضارة الغربية، وهما: أن الحضارة الغربية تنتقل من السيء إلى الأسوأ في كل مجالاتها، وأنها معادية للفطرة.

وبينت أن كل معاداة للفطرة سيكون نتيجتها تدمير تلك الحضارة، وهو ما حدث

سابقًا مع عدد من الحضارات، وهو ما سيكون مع الحضارة الغربية، لذلك نستطيع أن نختم بالقول: إن التغيير يقوم على عنصرين: موضوعي وذاتي، فالموضوعي حاضر وقائم ومنجز، بقي العنصر الذاتي، وهو ما يجب أن تسعى إلى تحقيقه القيادات الإسلامية، فهل تستطيع القيادات الإسلامية أن تنجز العنصر الذاتي، هذا ما ستجيب عنه الأيام القادمة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الجمعة ١ جمادى الأولى ١٤٤٤هـ/ الموافق ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٢٢م.

***

القسم الأول

بنية الحضارة الغربية

مدخل إلى القسم الأول
بنية الحضارة الغربية

وضحت في القسم الأول كيفية تشكل الحضارة الغربية، والعوامل التاريخية التي حكمت هذا التشكُّل، ثم انتقلت إلى المبادئ التي قامت عليها هذه الحضارة، والتي حكمت فيها كل نظمها وأجزائها ومفرداتها وإنسانها ومجتمعها. ثم انتقلت في مرحلة أخرى من البحث إلى توضيح الأنظمة التي قامت عليها هذه الحضارة، فكان الحديث عن ثلاثة أنظمة وهي: النظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي؛ لذلك احتوى هذا القسم خمسة فصول، هي:

الفصل الأول: المكونات التاريخية للحضارة الغربية.

الفصل الثاني: مبادئ الحضارة الغربية.

الفصل الثالث: النظام السياسي في الحضارة الغربية.

الفصل الرابع: النظام الاقتصادي في الحضارة الغربية.

الفصل الخامس: النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية.

***

الفصل الأول

المكونات التاريخية للحضارة الغربية

ويحتوي على المباحث التالية:

المبحث الأول: المكون اللا ديني.

المبحث الثاني: المكوّن العلمي الإسلامي.

المبحث الثالث: المكوّن الوثني.

المبحث الرابع: مكوِّن الطبقة البرجوازية.

***

المبحث الأول
المكوّن اللاّ ديني

لقد حكمت الكنيسة أوروبا لمدة تزيد عن ألف وثلاثمائة سنة، بدأت منذ عام ٤٦٧م بعد سقوط روما، واستمرت إلى الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وقد وقعت الكنيسة في أخطاء كبيرة أدت إلى قيام ثورات متعددة عليها في كل أنحاء أوروبا ولكن أبرزها ثورتان، هما:

١ ـ ثورة مارتن لوثر عام ١٥١٧م.

٢ ـ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م.

ونحن سنستعرض أخطاء الكنيسة أولًا، ثم سنستعرض الثورات وأثرها في تكوين الحضارة الغربية ثانيًا.

أولًا: أخطاء الكنيسة

دعا المسيح عليه السلام بني إسرائيل بعد ابتعاثه إلى عبادة الله وحده، وحاول إصلاح واقع بني إسرائيل الذي ملأته الانحرافات المادية وقسوة القلب، لكن بني إسرائيل وشوا به عليه السلام إلى الرومان، وتآمروا مع الرومان على قتله عليه السلام، لكن الله رفعه إلى السماء وأنجاه من بني إسرائيل والرومان.

ثم انتشرت المسيحية في كل أرجاء الدولة الرومانية في محيط البحر الأبيض المتوسط، وانقسم المسيحيون إلى فريقين:

الأول: فريق يقول بأن المسيح هو عبد الله، وعلى رأس هذا الفريق القس آريوس.

الثاني: فريق يقول بأن المسيح هو الله، وكان على رأس الفريق ألكسندروس بابا الإسكندرية.

وعندما استفحلت الخلافات بين الفريقين، وحدثت صراعات عدة بينهم، وهددت كيان الإمبراطورية الرومانية، قرر الامبراطور قسطنطين عام ٣٢٥م التدخل من أجل وحدة الإمبراطورية، مع أن الامبراطور كان وثنيًا، وكانت الإمبراطورية ذات صبغة وثنية، ومن أجل تحقيق وحدة الشعب وإنهاء الانقسام، عقد الإمبراطور «قسطنطين الأول» مؤتمرًا في «نيقية» في الشمال الغربي لآسيا بتاريخ ٢٠ آذار واستمر إلى ١٩ حزيران ٣٢٥م، واستهدف المؤتمر دراسة الخلافات بين آريوس وأتباعه من جهة، وبين ألكسندروس وأتباعه من جهة أخرى، حول طبيعة المسيح هل هو الله؟ أم عبد الله؟ وانحاز الإمبراطور إلى رأي بابا الإسكندرية نتيجة وثنيته، ودعا إلى ألوهية المسيح، ووجه الدولة إلى محاربة أريوس وأتباعه، وتحريق كتبهم، واضطهاد مذهبهم.

انتشرت المسيحية التي تقول إن المسيح هو الله بعد ذلك في كل أوروبا وبلاد الشام ومصر وشمالي أفريقية، وأصبحت الكنيسة ورجال الدين فيها هم المسيطرون على كل شؤون المجتمع الأوروبي: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية إلخ...

لقد قادت الكنيسة المجتمع الأوروبي في القرون الوسطى والتي امتدت منذ عام ٤٧٦م إلى حين وقوع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، لكنها وقعت في نوعين من الأخطاء:

الأولى: أخطاء علمية منهجية شرعية تتعلق بفطرة الإنسان وخلقته.

الثانية: أخطاء عملية تتعلق بممارسات الكنيسة والرهبان.

ونحن سنتحدث عن هذين النوعين من الأخطاء.

الأولى: أخطاء علمية منهجية شرعية تتعلق بفطرة الإنسان وخلقته

كانت الكنيسة تنطلق من أنها تتبع تعاليم المسيح عليه السلام، وأنها تمثل إرادة الرب فيما تتصرف، لكنها حرفت تعاليم المسيح عليه السلام في أمرين يتعلقان بالفطرة:

الأول: فطرة التعلم.

الثاني: فطرة الشهوات.

الأول: فطرة التعلم:

تذكر التوراة أن الله طرد آدم من الجنة؛ لأنه أكل من الشجرة المحرمة عليه، وهي شجرة المعرفة.

لقد زرع هذا الكلام العداء للعلم في المسيحية، مع أن القرآن الكريم أشار إلى أن الإنسان مفطور على التعلم، وكانت أفضليته على الملائكة بقابليته للتعلم، لذلك بين القرآن الكريم أن الله علم آدم الأسماء كلها، ثم طلب من الملائكة أن يذكروا له أسماء المخلوقات فعجزوا، فطلب من آدم أن يعرف الأسماء فذكرها، لذلك فضله الله للاستخلاف في الأرض، وقد بين القرآن كل تلك الوقائع، فقال تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة ٣١ ـ ٣٣].

الثاني: فطرة الشهوات:

لقد اعتبرت المسيحية أن الشهوات دنس يجب أن نبتعد عنها، وأن أبرز هذه الشهوات:

شهوة النساء، وقد اعتبرت الزواج زنًا مهذبًا، كما دعت إلى الابتعاد عن الدنيا وجمع الأموال، واعتبرت الرهبنة الطريق الرئيسي لتحصيل رضا الله جل جلاله، وتكون الرهبنة بالانقطاع للعبادة والذكر، وترك الزواج، لذلك كثرت الأديرة في جميع البلاد التي تدين بالمسيحية.

لقد كانت نتيجة موقف المسيحية الخاطئ من فطرة العلم والشهوات، انفجار الفطرة في وجه المسيحية، وإبعادها عن كل شؤون الحياة، وأخذ الفطرة وضعها الطبيعي في

إرواء الشهوات، وفي إشباع العقل تطلعه إلى الحقيقة والتعلم، لكن الحضارة الغربية ـ بكل أسف ـ لم تقف عند إرواء الشهوات والعقل فحسب، بل قابلت خطأ الكنيسة بالخطأ في حق كل الأديان، وعادت وحاربت كل ما هو ديني، وجعلت الدين وهمًا وخرافة يجب محاصرته ضمن جدران الكنيسة.

الثانية: الأخطاء العملية التي وقعت فيها الكنيسة

وقع رجال الدين في الكنيسة بعدة أخطاء جعلت جماهير أوروبا تعاديهم وتبغضهم، وأدت هذه الأخطاء إلى انفجار الثورة الفرنسية ضد رجال الدين وأخطائهم، ونحن لن نعدد كل هذه الأخطاء بل سنذكر بعضها على سبيل المثال، وهي:

أ ـ صكوك الغفران.

ب ـ الغنى الفاحش للرهبان وحياتهم المترفة.

ج ـ محاكمة العلماء وقتلهم.

أ ـ صكوك الغفران:

من مخازي الكنيسة أنها أعلنت عن بيع صكوك الغفران بمبالغ معينة لعامة المسيحيين، وهذا الصك يشتريه المسيحي من الكنيسة مقابل مبلغ معين من المال، ويمنح هذا الصك مغفرة للمسيحي، وأعلنت الكنيسة عن هذه الصكوك بقصد بناء كنيسة للقديس بطرس في روما، وهذا الإعلان أثار حفيظة «مارتن لوثر» الذي عقب على هذا الإعلان وغيره من الأمور، وأعلن ثورته في عام ١٥١٧م، ودوَّن ٩٥ انتقادًا للكنيسة على بابها، وبدأت بعد ذلك البروتستنتية في التشكيل، ودخلت في صراع مع الكنيسة الكاثوليكية، ونظمت الكنيسة مناظرة مع «مارتن لوثر»، لكنه لم يتراجع عن آرائه ومواقفه.

ب ـ الغنى الفاحش للرهبان وحياتهم المترفة:

مع أن الرهبنة وجدت في الأصل لتجعل الراهب يعيش حياة كفاف وزهد، لكن

الأديرة أصبحت على العكس من ذلك قصورًا فخمة يعيش فيها الرهبان حياة بذخ وترف، مما أفقد الرهبان مصداقيتهم، وزرع بذرة العداء لهم من قبل عموم الناس، وجعلهم يحقدون عليهم ويبغضونهم.

ج ـ محاكمة العلماء وإحراقهم:

طرح بعض العلماء آراء من خلال أبحاث علمية قاموا بها في مجال الفلك والجغرافيا وغيرها من العلوم، واصطدمت هذه الآراء مع بعض أقوال الكنيسة والتي ادعت أنها من الله، ومن هذه الآراء قول كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣م) أن الشمس هي مركز الكون، في حين أن الكنيسة كانت تقول بأن الأرض هي مركز الكون.

وحاكمت الكنيسة العالم جوردانو برونو (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠م)، وحكمت عليه بالهرطقة والحرق؛ لأنه قال بنظرية كوبرنيكوس والتي تقول بمركزية الشمس وتبعية الأرض لها.

ثم نشر غاليلو غاليلي نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها، وعقدت له محكمة التفتيش الروحانية سنة ١٦٣٢م بتهمة الزندقة، وحكم عليه بالسجن.

في ١٦٠٦م وضع كتاب كوبرنيكوس (دورات الأجرام) في قائمة الكتب المحرمة من قبل الكنيسة، وفي نفس الوقت صدر قرار من البابا بإدانة جميع الكتب التي تؤيد حركة الأرض حول الشمس.

وهناك أمثلة أخرى وقعت في محاكمة العلماء، وسجنهم أو قتلهم بسبب أقوال علمية تخالف رأي الكنيسة.

ثانيًا: الثورات ضد الكنيسة

لقد تعددت ردود الفعل العنيفة على آراء الكنسية الخاطئة، وممارساتها الشاذة، في مختلف أنحاء أوروبا، وفي مختلف الأزمنة، فقامت ثورات متعددة، منها:

ثورة الكتاريون (القرن الثالث عشر)، وثورة كروميل في بريطانيا (القرن السابع

عشر)، وثورة مارتن لوثر في ألمانيا (القرن السادس عشر) إلخ... وتركت آثارًا متعددة في المجتمع الأوروبي، ونحن سندرس أبرز ثورتين وأشدهما تأثيرًا في المجتمع الأوروبي وهما:

أ ـ ثورة مارتن لوثر عام ١٥١٧م.

ب ـ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م.

أ ـ ثورة مارتن لوثر عام ١٥١٧م[١]:

ولد مارتن لوثر عام ١٤٨٣، وتوفي عام ١٥٤٦، وكان راهبًا، وقد ثار ضد ممارسات الكنيسة الخاطئة وأبرزها «صكوك الغفران»، وفي يوم ٣١ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٥١٧ علق مارتن لوثر منشورًا على باب كنيسة «جميع القديسين» في فيتنبرغ، يحتوي خمسًا وتسعين قضية منتقدًا فيها الكنيسة، وأحدثت هذه الثورة شرخًا في الدين المسيحي، ونشأ مذهب جديد تحت مسمى «البروتستانتية»، وانتشر هذا المذهب الجديد في كل من ألمانيا وإنجلترا وأمريكا، والأرجح أن مارتن لوثر تأثر بالدين الإسلامي في كثير من القضايا التصحيحية التي طرحها معترضًا على الكنيسة الكاثوليكية، وقد وصلته هذه القضايا التصحيحية من خلال اطلاعه على الإسلام الذي نقل الصليبيون صورته إلى أوروبا بعد احتكاكهم بالمسلمين على مدى قرنين في الفترة ما بين (١٠٩٦ ـ ١٢٨٧م)، وهي فترة الحروب الصليبية.

وتستطيع أن تلخص أبرز النقاط التي طرحها مارتن لوثر نتيجة تأثره بالدين الإسلامي، وهي:

١ ـ من المعلوم أن الإسلام جعل المسؤولية فردية أمام الله، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

(١) من أجل التوسع في فهم التغييرات التي أحدثها مارتن لوثر في المسيحية من خلال تأثره بالإسلام يمكن العودة إلى كتاب «محاضرات في النصرانية» للدكتور محمد أبو زهرة.

وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [فاطر: ١٨]، وأنه لا وسيط بين العبد وبين الله، وأن الله قريب من العبد، يمكن أن يناجيه العبد، ويسأله، ويستغفره فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد استفاد مارتن لوثر من هاتين الحقيقتين الإسلاميتين؛ وقد قرر أن المؤمن شخصية فردية من جهة، واعترض على البابا في دعواه أنه يملك الحق في إعفاء الناس من الحساب الإلهي نتيجة «صكوك الغفران» من جهة ثانية.

٢ ـ من المعلوم أن جميع المسلمين ـ دون استثناء ـ يتلون كتاب الله ويفسرونه ويفهمونه ويتدبرونه مباشرة ودون أية واسطة، أما الإنجيل حسب الطرح الكاثوليكي، فكان مقصورًا على الكنيسة والرهبان يتلونه ويفهمون نصوصه. رفض مارتن لوثر فكرة اقتصار هذا الحق على الكنيسة والرهبان، ورأى أن ذلك من حق كل مسيحي، لذلك ترجم الإنجيل إلى الألمانية، من أجل أن يقرأه كل مسيحي دون وساطة الكنيسة أو الرهبان، ومن الراجح أنه أخذ هذه الفكرة من الدين الإسلامي.

٣ ـ تملأ الصور والتماثيل والزخارف والأيقونات جدران الكنائس الكاثوليكية، وهذه الصور تمثل المسيح ومريم عليهما السلام، وتمثل القديسين، وقد رأى الصليبيون مساجد المسلمين خالية من أي صور أو زخارف أو تماثيل أثناء الحروب الصليبية، وقد اتجه مارتن لوثر لتقليد المسلمين، لذلك منعت البروتستانتية كنائسها من رسم الصور وإقامة التماثيل والزخارف في أسقفها وجدرانها، واقتربت من صورة مساجد المسلمين.

٤ ـ اعتبرت الكاثوليكية الملك والغنى دليل بعد عن الله، وأن الفقر دليل قرب من الله، ودعت إلى الرهبنة والانقطاع عن العمل، في حين أن مارتن لوثر اعتبر أن المال والثروة

يمكن أن تكون دليل رضى من الله، وحث على جمع المال، والأرجح أنه أخذ هذا المنحى متأثرًا بالإسلام الذي اعتبر «الغني الشاكر خيرًا من الفقير الصابر»، والذي اعتبر العمل عبادة ونهى عن الرهبنة.

٥ ـ اعترفت الكاثوليكية بالإنجيل ككتاب مقدس لها، ولم تعترف بالتوراة، لكن مارتن لوثر اعتبر أن الانجيل هو العهد الجديد، وأن التوراة هي العهد القديم، واعتبرهما مكملين لبعضهما. وبهذه الخطوة أدخل مارتن لوثر كل الخرافات التي كانت موجودة في اليهودية، وبهذا تولد تيار صهيوني مسيحي في البروتستانتية أشد مناصرة لليهود من الصهيونية اليهودية. وقد استغلت الصهيونية المعاصرة هذا التيار أشد استغلال من أجل دعم إسرائيل وترسيخها في فلسطين والمنطقة العربية.

٦ ـ سمح لوثر للقسيسين بالزواج، في حين أن الكنائس الكاثوليكية كانت تمنع القسيسين من الزواج. والأرجح أن هذه الخطوة تقليد للعلماء المسلمين حيث يسمح لهم بالزواج.

نلاحظ من خلال العرض السابق أن مارتن لوثر أحدث تطورات جذرية في المسيحية، جعلت البروتستانتية دينًا جديدًا استفاد من الإسلام، لكن النقطة الوحيدة التي جعلت البروتستنتية بعيدة عن الإسلام استمرار تمسكها بأن المسيح هو الله، وكانت كل التغييرات نتيجة الأخطاء في جوهر المعتقدات المسيحية وممارسات رجال الكنيسة، وقد كانت هذه الثورة تمهيدًا للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، والتي اقتلعت المسيحية بشكل كامل من أوروبا.

ب ـ الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م

قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، والتي اقتلعت الدين من فرنسا، وفصلت الدين عن شؤون الحياة، وحصرته في الكنيسة، وأنشأت «العلمانية» التي بدأت بفصل السياسة

عن الدين، ثم توسعت لتفصل كل شؤون الحياة عن الدين، من أخلاق واقتصاد وعلم وفن وإدارة إلخ...

ولم تكتف العلمانية بفصل تلك الموضوعات عن الدين، بل اعتبرت الدين يقوم على الخرافات والأوهام والخزعبلات، وأنه محل استغلال رجال الدين والكهنوت، وهو ضد التقدم والنهضة والحضارة والعلم، واعتبرت أن المادة أصل الكون، وأن البعث والجنة والنار والملائكة والشياطين إلخ...، كلام لا أصل له، وبهذا أرست الثورة الفرنسية المكون اللّا ديني في الحضارة الغربية، والذي أصبح أصلًا رئيسيًا فيها، والذي تمثل في محور فكري رئيسي هو «العلمانية»، والتي تنطلق من معاداة الدين، ومحاربته، والتضييق عليه وحصره في الكنيسة، وإبعاده عن التأثير والتدخل في كل شؤون الحياة الأخرى، مثل: الاقتصاد، العلم، الأسرة، المجتمع إلخ...، ثم انتقلت مبادئ الثورة الفرنسية والتي تقوم على فصل الدين عن السياسة، وحصره في الكنيسة، وعدم السماح له بالتدخل في شؤون المجتمع إلى كل أوروبا، وترسخت العلمانية في كل أوروبا خلال فترة بسيطة من قيام الثورة الفرنسية.

***

المبحث الثاني

المكون العلمي الإسلامي[١]

لقد كانت الحضارة الإسلامية حضارة علمية بكل معنى الكلمة، فقد اطلعت على علوم الأمم السابقة: اليونانية والهندية والرومانية والفارسية إلخ...، من خلال ترجمتها أولًا، ثم دراستها ثانيًا، ثم استيعابها والزيادة عليها ثالثًا. فقد ترجم المسلمون كل تراث اليونان في مجال: الطب والفلك والرياضيات والفلسفة إلخ...، كما ترجموا كل تراث سقراط وأفلاطون وأرسطو وسقراط وغيرهم من العلماء اليونان، كما ترجموا التراث الهندي في مجال الطب والعلوم والحكمة إلخ...، كما ترجموا التراث الفارسي في مجالات الحكم والبروتوكول والتصوف والأديان إلخ...، وقد استوعبت الحضارة الإسلامية كل تلك العلوم وصبغتها بصبغتها، فأخذت ما يناسبها، وأضافت عليها الكثير في مختلف التفصيلات، لذلك كان التراث العلمي الإسلامي واسعًا، فطور المسلمون علوم الفلك التي بدأها بطليموس، واخترعوا علم الهيئة، كما طور المسلمون علوم الطب في مختلف مجالات حياة الإنسان، واكتشفوا العديد من الأدوية، كما ابتكروا علومًا متعددة، منها: علم الجبر، وعلم الكيمياء، وعلم المثلثات، وعلم الصيدلة، وعلم العمران، وعلم أصول الفقه إلخ...

من المهم أن نؤكد أن نهضة أوروبا العلمية قامت على ثلاثة ركائز من الحضارة الإسلامية، وهي:

الركيزة الأولى: ترجمة ونقل جميع العلوم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا.

---

(١) فصلت الحديث عن تطوير المسلمين بعض العلوم الدنيوية مثل: الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات والزراعة والصناعة، وعن ابتكار بعضها الآخر وأثرها في البشرية في كتابي «الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ: دراسة وتحليل»، وقد اعتمدت عليه في توضيح تأثير العلوم الإسلامية في الحضارة الغربية.

الركيزة الثانية: نقل مبدأ التجريب واعتماده في نهضة أوروبا.

الركيزة الثالثة: نقل التراث اليوناني من خلال الترجمات العربية له.

وسنشرح هذه الركائز الثلاثة وسنبدأ بالأولى.

الركيزة الأولى: ترجمة ونقل جميع العلوم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا:

ترجمت أوروبا كل العلوم العقلية والنقلية التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، وبنت أوروبا عليها نهضتها العلمية، واستفادت منها في مختلف مجالات الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والصيدلة إلخ...، واعتمدتها كأصل في نهضتها العلمية، وفي كثير من الأحيان سرق بعض كتابها بعض العناوين الإسلامية ونسبوها لأنفسهم، وقد أشار إلى مثل هذه السرقات الدكتور فؤاد سزكين في بعض تحقيقاته التي كتبها عن التراث الإسلامي.

الركيزة الثانية: نقل مبدأ التجربة:

يعتبر اعتماد مبدأ الترجمة أصل قيام العلوم العقلية جميعًا، ولا قيام للعلم دون اعتماد التجربة كأصل في الحياة العلمية، وقد نقلت أوروبا مبدأ اعتماد التجربة من الحضارة الإسلامية، وقد نقل فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦م) هذا المبدأ من الأندلس إلى أوروبا.

الركيزة الثالثة: التواصل مع التراث اليوناني من خلال الترجمة الإسلامية له:

يعتبر التراث اليوناني وبخاصة الجانب الفلسفي منه أصلًا كبيرًا من أصول الحضارة الغربية، وقد تواصلت أوروبا مع هذا التراث اليوناني من خلال الترجمات الإسلامية لكتابات أرسطو وأفلاطون وسقراط وأبقراط وفيثاغورس إلخ...

***

المبحث الثالث

المكوّن الوثني[١]

سادت حضارتا اليونان والرومان أوروبا في العصور القديمة قبل مجيء المسيحية، وقد تميزت الحضارتان بأنهما وثنيتان، ثم أصبحت هاتان الحضارتان مصدرًا لإلهام أوروبا بعد نهضتها إثر الثورة الفرنسية، فماذا أخذت أوروبا من هاتين الحضارتين؟

أخذت عدة أفكار وآراء، هي:

الأولى: فكرة الصراع:

اعتبرت الحضارة اليونانية أن العلاقة بين الآلهة فيما بينها علاقة صراع وقتال، وأن العلاقة بين الآلهة والبشر هي علاقة صراع، وأن الصراع يسود كل مكونات الوجود: الآلهة والإنسان والكون. وقد انتقل هذا المبدأ إلى الحضارة الغربية المعاصرة من الحضارة اليونانية، وكانت له انعكاسات على علاقة الحضارة الغربية المعاصرة بالطبيعة وبالشعوب المجاورة.

أما الطبيعة فدمرتها، ونتج عن ذلك ذوبان ثلوج القطب الشمالي والجنوبي نتيجة ارتفاع درجة حرارة الأرض. مع أن العلاقة بين الإنسان والطبيعة هي علاقة تكامل، فقد قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ [النحل: ٢١].

أما الشعوب فقد انعكست على علاقاتها مع بعضها بعضًا، فكان القتال، وقامت حربان عالميتان خلال أقل من نصف قرن قتل فيهما ما يقرب من مئة مليون إنسان، وجرح

---

(١) للتوسع في إدراك مضامين هذا المكون يمكن العودة إلى أبي الأعلى المودودي في كتابه «نحن والحضارة الغربية»، وكذلك إلى محمد أسد في كتابه «الإسلام على مفترق الطرق».

فيهما مئات الملايين، ورافق ذلك تدمير كامل لكل أوروبا وشمال أفريقيا وشرق آسيا.

كما انعكست على التقعيد لعلاقة الشعوب بعضها مع بعض، فقام التقعيد على صراع الحضارات كما قعد هنتنغتون ذلك، وليس «الحوار»، أو «التكامل»، أو «التعارف» كما أراد الإسلام.

الثانية: دخول الأساطير اليونانية في الثقافة الغربية:

لقد نقلت الحضارة الغربية الأساطير اليونانية من مثل أسطورة: أوديب، وألكترا، وسيزيف إلخ...، وترجمتها، ودخلت هذه الأساطير في الأدب الغربي المعاصر فتناولها الأدباء، وصاغوا منها روايات وقصصًا، وصاغوا منها المسرحيات، وتناولها أجيال من الكتاب والباحثين، كما أصبحت أساسًا في تكوين الخيال الأوروبي، وفي تكوين العقل الباطن الأوروبي، وقد استفاد منها فرويد في تفسير اللاشعور عند الإنسان بشكل عام، كما استفاد منها في التحليل النفسي وفي إلقاء الضوء على العقد النفسية.

***

المبحث الرابع
مكون الطبقة البرجوازية

يعتبر «النظام الإقطاعي» الذي سيطر على أوروبا في العصور الوسطى من أقسى الأنظمة وأكثرها ظلمًا، وهو مكون من طبقتين إحداهما: السادة، (النبلاء والملوك)، وهم الطبقة السياسية، ورجال الدين (الاكليروس)، وهم الطبقة الدينية، والثانية: الفلاحون (الرقيق) وهم عامة الشعب، ومن عامة الشعب نشأت طبقة ثالثة ليست من النبلاء، ولا الرقيق، يعتمدون على التجارة والكسب من غير أن يكونوا رقيقًا في الأرض. ويدخل في هذه الطبقة التجار، والمدرسون، والأطباء، والمهندسون، وأصحاب المهن الحرة. وقد عرفت هذه الطبقة بالطبقة الوسطى (البرجوازية).

وقد ضاق التجار وأصحاب رؤوس الأموال من القيود والانغلاق الذي يقف حائلًا دون تنمية رؤوس أموالهم، وتوسيع طموحاتهم المادية، وقد كان لهذه الطبقة الجديدة دور بالغ الأهمية في تأسيس مجتمع السوق القائم على المنافسة، كما كان لها أثر بالغ في التحولات الاجتماعية في أوروبا، والوقوف في وجه الإقطاع والكنيسة. وقد كان يعوز هذه الطبقة: «النظرية الفلسفية» التي تساعدهم في الخروج من قبضة الإقطاع والكنيسة، وقد وجدوا بغيتهم في «الليبرالية» التي تقوم على «الحرية الاقتصادية» ورفع العوائق عن آليات السوق، وترك حركته مرسلة دون تدخل أو رقابة... وبهذا نستطيع أن نقول إن الليبرالية هي فكر ومنهج الطبقة الوسطى، باعتبارها تقوم على أساس الفردية، وخاصة من خلال آراء «جون لوك» في الملكية الخاصة. وقد انتقلت الليبرالية من الفكر المجرد إلى الواقع العملي من خلال: الملكية الدستورية في إنجلترا (١٦٨٨م)، والثورة الأمريكية (١٧٧٥م)، والثورة الفرنسية (١٧٨٩م).

وبهذا نشأت الطبقة البرجوازية التي كانت الأصل في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م

والتي اقتلعت الدين من أوروبا، ورسخت اللا دينية من خلال العلمانية، وجاءت هذه الطبقة نتيجة تحالف طبقة التجار مع الليبرالية.

وقد ازدادت هذه الطبقة غنى ورسوخًا وتوسعًا بعد اكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢، فقد استفادت هذه الطبقة البرجوازية من غنى أمريكا الاقتصادي، وقد نقلت هذه الطبقة البرجوازية أطنان الذهب والفضة التي كانت تجمعه من الأميركتين إلى أوروبا، وقد ولّد هذا الغنى الفاحش للطبقة البرجوازية القدرة على تطوير وتضخم الآلة العسكرية، وولّد ـ كذلك ـ القدرة على الإنفاق على التجارب العلمية التي تحتاجها التطورات الحضارية التي كان يمر بها الغرب من اكتشاف البخار والكهرباء وغير ذلك من الاكتشافات العلمية.

❊ ❊ ❊

الخلاصة

هذه بعض معالم الأحداث التي كانت أصلًا في تَشَكُّل وتكوين الحضارة الغربية في نموذجها المعاصر، وهي ـ كما رأينا ـ عوامل مختلفة بين المكون اللا ديني الذي جاء نتيجة ممارسات الكنيسة الخاطئة، وبين المكون العلمي الإسلامي الذي جاء حصيلة التأثيرات العلمية الإسلامية، ثم المكون الوثني الذي جاء حصيلة الارتباط بالثقافة اليونانية والرومانية، ثم جاء مكون الغنى الاقتصادي الذي تولد من اكتشاف أمريكا مع بداية تشكُّل الحضارة الغربية، ثم جاء في النهاية مكون الطبقة البرجوازية، والذي جاء حصيلة التطور الاجتماعي لجدلية الإقطاع والنبلاء ورجال الدين، والسؤال الآن: ما هي الأفكار التي ولدتها هذه المكونات، والتي حكمت الحضارة الغربية في جميع فروعها السياسية والاقتصادية والثقافية إلخ...؟ المبادئ ستأتي موضحة في الفصل القادم.

***

الفصل الثاني
مبادئ الحضارة الغربية

مدخل إلى مبادئ الحضارة الغربية

تقوم الحضارة الغربية في كل جوانبها السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتربوية والفنية إلخ...، على ستة مبادئ، وسندرسها ضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: مبدأ العلمانية.

المبحث الثاني: مبدأ نسبية الحقيقة.

المبحث الثالث: مبدأ المادية.

المبحث الرابع: مبدأ تأليه الإنسان والشهوات.

المبحث الخامس: مبدأ الليبرالية.

المبحث السادس: مبدأ البراغماتية.

***

المبحث الأول

مبدأ العلمانية[١]

بدأت العلمانية ـ كما تحدثنا ـ بعد انتصار الثورة الفرنسية بفصل السياسة عن الدين، أو على فصل الدولة عن الدين، وقد حصل هذا نتيجة ممارسات الكنيسة الدينية الخاطئة التي قامت بها ونتيجة السلوك غير السوي لرجال الكنيسة في العصور الوسطى.

ثم تطورت العلمانية ففصلت العلم عن الدين، ثم فصلت الأخلاق عن الدين، ثم فصلت الاقتصاد عن الدين إلخ...، حتى وصلت إلى فصل كل شيء عن الدين، حتى لا يكون للدين تأثير في أي فرع من فروع الحياة والمجتمع والدولة إلخ...

ونحن سندرس مظاهر العلمانية في الحضارة الغربية من خلال محورين، هما:

١. محور تطور العلمانية.

٢. محور أنواع العلمانية.

وسنبدأ من محور التطور الذي سارت فيه العلمانية.

المحور الأول: محور تطور العلمانية

مرت العلمانية بأربعة تطورات خلال التاريخ المعاصر، وهي:

التطور الأول: العلمانية الجزئية:

وهي ـ كما بينا ـ نشأت مع الثورة الفرنسية بفصل السياسة عن الدين، وهذا ما يمكن أن يسمى «العلمانية الجزئية»، وهو الاسم الذي أطلقه عبد الوهاب المسيري رحمه الله

---

(١) يمكن العودة إلى الكتابين: «العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة» للدكتور عبد الوهاب المسيري، وإلى كتاب «بؤس الدهرانية» للدكتور طه عبد الرحمن، من أجل مزيد من توضيح العلمانية في مختلف صورها وتطوراتها ومعانيها وأحوالها.

على هذه المرحلة، وفي هذه الحالة بقي الإنسان وبعض القيم المرتبطة به، مثل العدل والرحمة والخير والتسامح إلخ...، قائمة ويرجع إليها.

التطور الثاني: العلمانية الشاملة:

تنتهي القيم التي ذكرناها في العلمانية الجزئية، وتصبح الذات المادية هي المرجع، وليست هناك أية قيمة أعلى من المادة، وتصبح مرجعية الاقتصاد مستمدة من ذاته وليس من مصدر قيمي أعلى، فتصبح مرجعية الاقتصاد ومعياريته بمقدار ما يحقق من ربح وثروة، وكذلك مرجعية الجنس ومعياريته بمقدار ما يحقق من متعة ولذة دون أية قيم أخرى مثل: المودة والرحمة والأسرة إلخ...

التطور الثالث: العلمانية الداروينية الاجتماعية:

ثم تطورت العلمانية من العلمانية الشاملة إلى العلمانية الداروينية الاجتماعية، بمعنى أن كل شيء في هذا الكون ـ الإنسان والطبيعة والمجتمع والحيوان ـ مادة، وهذه المادة خاضعة لقانون التطور، وتحكمها قيمتا الصراع والبقاء للأقوى، وفي هذه المرحلة من العلمانية ينتهي المقدس من حياة الإنسان، وهذا مناف للفطرة؛ لأن الإنسان مرتبط بفطرة تقديس شيء ما بغض النظر عن نوعية هذا المقدس.

التطور الرابع: ابتداع أخلاق دون ارتباطها بالدين:

لم يقف تطور العلمانية عند مرحلة الداروينية الاجتماعية التي تقوم على إنهاء المقدس في وجود الحضارة الغربية، والتي وصلت الذروة في الهروب والشرود من الدين ومعاداته، بل شرعوا أحيانًا بإيجاد بدائل مما فصلوه عن الدين، وخير مثال على ذلك الأخلاق، فمن الواضح والجلي والمؤكد أن أبرز ثمرة من ثمرات الدين هي الأخلاق، فالدين يثمر الخلق الحسن، والخلق مرتبط بالدين، لكن العلمانيين من أجل مزيد من الابتعاد عن الدين، والهروب، والشرود منه، قالوا لا نريد هذه الأخلاق المرتبطة بالدين،

بل نريد أن نصنع أخلاقًا لا علاقة لها بالدين، وقد قامت أربع محاولات في هذا المجال سنعرضها لاحقًا واحدة تلو الأخرى، وهي:

الأخلاق الطبيعية:

ويمكن أن نعتبر الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو[١] خير ممثل لهذه الأخلاق الطبيعية، وقد شرح أفكاره عن تلك الأخلاق في كتاب «إيميل» وعنونه باسم «عقيدة قسيس من جبل السافو»، ووضح أن تلك الأخلاق ناتجة عن الارتباطات الطبيعية والتفاعل معها، وأنكر «الوحي» وأنكر «وجود الملائكة» كما أنكر «الصلاة»، وأسند روسو إلى الضمير الصفات التي تسند إلى الإله، وقد اعتبر أن ضميره هو الذي يأمره وينهاه ويحكم على أفعاله إن خيرًا أو شرًا.

الأخلاق العقلية:

أسس «إيمانويل كانط»[٢] الأخلاق على العقل وحده، وقام تصور كانط على أن العقل قادر على أن يتوصل إلى قوانين أخلاقية عقلية، وإن كل قانون يقره العقل يكتسب قيمة عليا تلزم جميع الكائنات العاقلة.

الأخلاق الاجتماعية:

وهي الأخلاق التي أسسها دوركهايم[٣]، ونسب دوركهايم إلى المجتمع كل صفات

---

(١) جان جاك روسو ولد في جنيف، ٢٨ يونيو ١٧١٢، وتُوفي في إيرمينونفيل ٢ يوليو ١٧٧٨ (عن عمر ناهز ٦٦ عامًا)، هو كاتب وأديب، ويعتبر أشهر فيلسوف فرنسي ربط الإنسان بالطبيعة.

(٢) إيمانويل كانط هو فيلسوف ألماني (1724 ـ 1804). عاش حياته كلها في مدينة كونيغسبرغ في مملكة بروسيا. كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبية الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكية.

(٣) دايفيد إميل دوركهايم فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي (١٨٥٨ ـ ١٩١٧). أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معًا. أبرز آثاره «في

الجلال والجمال، التي تحتفي بها الأخلاق في الأديان المنزلة، فقال: «إن المجتمع بالنسبة للفرد كالإله بالنسبة للعباد، فإن الإله هو قوة أعلى تأمر وتتبع، وكذلك المجتمع له نفس العلو والآمرية علينا».

الأخلاق الناسونية:

لقد أقامت الناسونية الناشئة عند لوك فيرى[1] الإنسان مقابل الإله، فقد وضع فيري مصطلحًا مركبًا هو «الإنسان الإله»، وأحل الأمر الآدمي مكان الأمر الإلهي.

***

المحور الثاني: محور أنواع العلمانية

هناك نوعان من العلمانية:

النوع الأول: العلمانية الفرنسية اليعقوبية

وهي المطبقة في فرنسا وبعض دول أوروبا مثل بلجيكا وهولندا والسويد إلخ...

النوع الثاني: العلمانية الأنجلوسكسونية

وهي المطبقة في إنكلترا وأمريكا وألمانيا إلخ...، وتلتقي العلمانيتان بأنهما تفصلان السياسة عن الدين، وتجعلان الدين لا يتدخل في الشأن العام، ويصبح الدين أمرًا شخصيًا محصورًا في الكنائس وفي أديرة الرهبان.

وتختلف العلمانيتان في أن العلمانية الفرنسية تتدخل في سلوك الشخص وتفرض عليه سلوكًا معينًا مخالفًا للتعاليم الدينية وتعاقبه إن لم يلتزم بذلك، كما تفعل فرنسا

تقسيم العمل الاجتماعي»، و«قواعد المنهج السوسيولوجي». أسس رسميًا الانضباط الأكاديمي لعلم الاجتماع ـ مع دو بويز وكارل ماركس.

(١) لوك فيري فيلسوف فرنسي ولد سنة ١٩٥٢، هو واحد من الفلاسفة الجدد، الذين أحدثوا تحولاً عميقًا في الأوساط الفلسفية السائدة.

بخصوص الحجاب، فهي تفرض على المسلمة خلع الحجاب في الأسواق والمدارس والدوائر الحكومية، وتعاقب من يخالف ذلك. في حين أن العلمانية الأنجلوسكسونية لا تفعل ذلك، وتسمح للمرأة المسلمة بأن تلبس الحجاب في الشارع والمدرسة ومكان العمل ودوائر الحكومة.

***

الخلاصة:

استعرضنا فيما سبق نشوء العلمانية، وبيّنا أنها هي التعبير الصارخ عن عداء الحضارة الغربية للدين، ورأينا تجذر هذا المبدأ في الحضارة الغربية، ورأينا التطورات التي مر بها من علمانية جزئية إلى علمانية شاملة إلى علمانية داروينية اجتماعية، وهذا التطور يشير إلى مزيد من البعد عن الدين وكفر بقيمه الغيبية وكفر بالقيم المرتبطة بالإنسان، وتوجه إلى المادة واعتبارها الأصل في وجود الإنسان والمجتمع والطبيعة، واعتبار قيم التطور المادي، والصراع بين الكائنات جميعها، والبقاء للأقوى هي القيم التي تحكم كل عوالم الاقتصاد والزراعة والصناعة والجنس والإدارة إلخ...، وغياب القيم المرتبطة بالإنسان مثل: التسامح، والمودة والرحمة إلخ...

وكما وضحنا في الدراسة السابقة عن العلمانية أن هناك نوعين من العلمانية هما: العلمانية الفرنسية (اليعقوبية) والعلمانية الأنجلوسكسونية، وتلتقي العلمانيتان بفصل السياسة والاقتصاد والقيم والأخلاق وغيرها من العناصر عن الدين، لكنهما تختلفان في الموقف من المواطن، فالعلمانية الفرنسية يمكن أن تفرض سلوكًا معينًا لا دينيًا، وأما العلمانية الأنجلوسكسونية فلا تتدخل في سلوكه الشخصي وتترك له حرية التصرف حسب معتقداته الدينية.

***

المبحث الثاني
مبدأ نسبية الحقيقة

تقوم الحضارة الغربية على مبدأ نسبية الحقيقة في مجال المبادئ والقيم والمثل والأخلاق والسلوك إلخ...، وهذا يعني أن كل شيء نسبي، وأنه ليست هناك حقيقة مطلقة، فمن المعلوم أن البشرية قامت على اعتبار أن هناك قيمًا ومثلًا وأخلاقًا ومبادئ ثابتة في كل مراحل وجودها، فقامت على وجود إله ووجود مقدس وعبادة شيء ما، بغض النظر عمن هو هذا الإله، وصفته وطريقة تقديسه وعبادته، ووجود دور عبادة، وعلى شرعية العلاقة بين الذكر والأنثى، والتزام هذه العلاقة والدعوة إلى ترويجها من خلال الزواج، وبالمقابل تجريم العلاقة بين المتماثلين من الذكور أو الإناث، والتي تأتي تحت عنوان ما يسمى باللواط والسحاق.

لكن الحضارة الغربية خرقت قاعدة الثبات في مجال القيم والمبادئ والمثل والأخلاق والسلوك التي جاءت بها جميع الأديان: من إسلام ومسيحية ويهودية وبوذية وهندوكية إلخ...، فقد أباحت الحضارة الغربية العلاقة بين المتماثلين، وعاقبت من يستنكر هذه العلاقة، أو يميز بين من يقوم بهذا الفعل وغيره، وأباحت قيام العلاقة بين الذكر والأنثى دون زواج كاتخاذ الأخدان «الصداقة»، وقعدت القوانين المبيحة لذلك، كذلك فصلت الحضارة الغربية بين الدين وكل شؤون الحياة، لتجعله أمرًا شخصيًا، وبالتالي جعلت الدولة تقوم على مبادئ وتشريعات ومواقف لا علاقة لها بالدين، بل اتخذت تشريعات ومواقف معادية للدين في كل أقسامها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية إلخ...، ومن الواضح أن الحضارة الغربية نتيجة المعطيات السابقة، ومن خلال رصدنا لتطور العلمانية في الصفحات السابقة أنه قد غاب المقدس نهائيًا في المرحلة الثالثة من تطور العلمانية وهي المرحلة الداروينية الاجتماعية، وهذا أمر غير طبيعي معاد للفطرة، وقد أدى هذا الوضع إلى الإلحاد بصورتيه: المباشرة كما حدث مع الشيوعية بإعلانها أنه «لا

إله والكون مادة» في الاتحاد السوفييتي، وغير المباشرة عندما تعلن أن الكون مادة أيضًا على مستوى الدولة، وعلى مستوى الأفراد تترك لمن شاء أن يقول بوجود إله، لكنها تجعل المقدس الذي تقدم له الطقوس هو الشهوات والجنس والمرأة كما هو حاصل في أوروبا الغربية وأمريكا ضمن النظام الرأسمالي.

وليس من شك بأن نسبية الحقيقة بكل تفصيلاتها التي عرضناها سابقًا تتعارض مع النص القطعي الثبوت قطعي الدلالة والذي جاء في عشرات من آيات القرآن الكريم، ومنها ما يتعلق بالعلم بالله وصفاته وأسمائه، ومنها ما يتعلق بعبادته جل جلاله كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج والصوم، ومنها ما يتعلق بالزواج والطلاق وعدة المرأة، ومنها ما يتعلق بالإرث، ومنها ما يتعلق بالأولاد ورضاعتهم، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]، ومنها ما يتعلق بالحدود كحد الزنا وحد السرقة والقتل والحرابة والخمر إلخ، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

***

المبحث الثالث
مبدأ المادية

قامت الحضارة الغربية على مبدأ ثالث وهو المادية، وقد جاءت المادية نتيجة عداء الحضارة الغربية للدين المسيحي، ومنازعتها له، وهذا ولّد عندها كفرًا بكل الغيوب التي قامت عليها الأديان، وهي الإيمان بالله والملائكة والجن والشياطين والجنة والنار إلخ...، وهذا جعلها تؤمن بالمحسوس والمعاين والمادة فقط، وقد تطور هذا المبدأ ليصبح إيمانًا بأنه ليست هناك أية قوة عليا تحرك الكون، ومن هنا جاءت نظرية داروين التي أنكرت إرادة الله في خلق الإنسان، واعتبرت الإنسان نتيجة تطور سلالات حيوانية، كان أرقاها القرد، كما تجسدت المادية بوسائل الإنتاج على يد ماركس، الذي اعتبر تطور وسائل الإنتاج من المحراث إلى الآلة البخارية إلى الآلة الكهربائية إلخ. .، هي التي تطور المجتمعات وتنتج القيم والأخلاق والمبادئ والأفكار إلخ...

وليس من شك بأن هذا الموقف غير سليم، والصحيح أن هناك عالمين: عالم شهادة، وعالم غيب، والأرجح أن عالم الغيب أكبر من عالم الشهادة الذي يراه الإنسان ويسمعه ويحسه، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

ولا شك أن ربط عالم الغيب بالخرافات والأوهام والخزعبلات التي جاء بها بعض رجال الدين في كنائس المسيحية قصور وخطأ وتصرف غير سليم، فيجب أن نفصل بين ما هو دجل وأوهام وخرافة وبين ما هو صحيح، فالصحيح أن هناك غيبًا، وأن هذا الغيب حق وليس بالضرورة أن يكون مرتبطًا بالأوهام والخرافات واستغلال رجال الدين، وهذا ما يجب أن نقوم به بشكل عقلاني وأن نفرق بين الغيب والخرافات والأوهام.

هذا عن المادية في العالم الشيوعي، أما المادية في العالم الرأسمالي في أمريكا وأوروبا الغربية، فإنها تؤمن بالمادية وتنكر الغيوب على مستوى الدولة وبشكل مطابق للبلدان الشيوعية، لكنها على مستوى الأفراد تسمح لهم بالإيمان بالله في العلمانية الأنجلوسكسونية.

❊❊❊

المبحث الرابع
مبدأ تأليه الإنسان والشهوات

لقد قامت أوروبا في العصور الوسطى على ثنائية «المقدس والمدنّس»، والتي جاءت مرتبطة بتعاليم الدين المسيحي الذي صاغته الكنيسة، وكان «المقدس» عندهم هو «الله، الآخرة، الروح»، وكان «المدنّس» عندهم هو «الإنسان، الدنيا، الجسد».

من المؤكد أن هذه الثنائية كانت نتائجها سيئة على المجالات: الاجتماعية، والنفسية، والعقلية، والفكرية، والعبادية إلخ...، وتصادمت في بعض نتائجها مع الفطرة وأدت إلى (ثورة لوثر) أولًا ثم الثورة الفرنسية ثانيًا، وهي التي رسخت «العلمانية» التي تقوم على العداء للدين، وإبعاده من كل أمور المجتمع، وقصره على جدران الكنيسة.

وكان إحدى نتائج الثورات انقلاب المعادلة، فأصبح «المقدس» مدنّسًا، و«المدنّس» مقدسًا كما وضحنا ذلك في الصفحات السابقة، فبعد أن كان المدنس هو «الإنسان، الدنيا، الجسد» أصبح المقدس هو «الإنسان، الدنيا، الجسد» بمعنى تأليه هذه المدنسات سابقًا، فحل الإنسان محل «الله» في التقديس، وكذلك «الدنيا والجسد» محل «الآخرة والروح».

وارتبط بهذا التقديس تأليه الإنسان، ورغباته وكل ما يتعلق بشهواته من حب المال والنساء، وامتد التأليه إلى الدنيا وما فيها من متاع وقصور وطعام وشراب إلخ...، وامتد التأليه إلى الجسد وشهواته، وبالذات شهوة النساء التي صارت من أبرز الآلهة التي تقود الحضارة الغربية، لأنها أقواها وأعملها في الكيان البشري.

وقد تجسد ذلك التأليه بحجم الأموال التي تنفق على الجنس في الأفلام والفيديوهات والنت والتجميل والأزياء إلخ...

فمن الواضح أن مبدأ تأليه الإنسان والشهوات، تجسد بشهوة الجنس، وتبلور الجنس بالمرأة وما يتعلق بها من أزياء وأدوات تجميل وعري إلخ...

المبحث الخامس

مبدأ الليبرالية[١]

الليبرالية مصطلح أجنبي معرب مأخوذ من (Liberalism) في الإنجليزية، و(Liberalisme) في الفرنسية، وهي تعني «التحررية»، ويعود اشتقاقها إلى (Liberty) في الإنجليزية أو (Liberate) في الفرنسية، ومعناها الحرية.

وهو مذهب فكري يركز على الحرية الفردية، ويعتقد أن الوظيفة الأساسية للدولة هي حماية حريات المواطنين مثل حرية التفكير، والتعبير، والملكية الخاصة، والشيء الأهم أن يبقى كل ذلك بعيدًا عن الدين وأحكامه وقيمه ومثله.

ويقوم هذا المذهب على أساس علماني يعظم الإنسان، ويرى أنه مستقل بذاته في إدراك احتياجاته، تقول الموسوعة الأمريكية الأكاديمية: «إن النظام الليبرالي الجديد (الذي ارتسم في فكر عصر التنوير) بدأ يضع الإنسان بدلًا من الإله في وسط الأشياء، فالناس بعقولهم المفكرة يمكنهم أن يفهموا كل شيء، ويمكنهم أن يطوروا أنفسهم ومجتمعاتهم عبر فعل نظامي وعقلاني» وشرح جميل صليبا: «الليبرالية ومذهب الحرية (Liberalism) أيضًا: مذهب سياسي فلسفي يقرر أن وحدة الدين ليست ضرورية للتنظيم الاجتماعي الصالح، وأن القانون يجب أن يكفل حرية الرأي والاعتقاد».

الأسس الفكرية لليبرالية

تقوم الليبرالية على ثلاث أسس هي:

الحرية، الفردية، العقلانية، ونحن سنشرح هذه الأسس الثلاثة:

---

(١) يعتبر العقاد من أبرز دعاة الليبرالية والدعوة إلى تدعيم الفردية وقد امتدح العقاد مذهب «الحريون» الذي يدعو إلى الحرية الفردية الناتج عن التأكيد على الذات، من أجل مزيد من التفصيل انظر كتاب «فلاسفة الحكم في العصر الحديث» للعقاد صفحة ١٢٣ وما بعدها.

الأساس الأول: الحرية:

تعني الحرية أن الفرد حر في أفعاله، ومستقل في تصرفاته دون أي تدخل من الدولة أو الدين أو غيرهما، وأن يعطى الأفراد أكبر قدر من الضمانات في مواجهة رجال الكنيسة والكهنوت.

الأساس الثاني: الفردية:

ويعني هذا الأساس أن الفرد هو الأصل في الحياة البشرية، وهو الحقيقة الأولى، وقد جاء هذا الموقف كرد فعل على الانضباط الكاثوليكي الجماعي الطويل في القرون الوسطى، وتعتبر «الليبرالية» أن المجتمع بمقدار ما يبرز ذات الفرد ويقدمه بقدر ما يكون هناك الارتقاء والتقدم.

الأساس الثالث: العقلانية:

تعني العقلانية استقلال العقل البشري بإدراك المصالح والمنافع دون الحاجة إلى قوى خارجية من دين أو وحي أو نبي أو إله، وقد تم استقلاله نتيجة تحريره من الاعتماد على السلطة اللاهوتية الطاغية.

ونلاحظ أن الاعتماد على العقل وتحييد الدين جاء بصورة متدرجة، ولكنه استحكم في عصر التنوير، وزاد ترسيخه كمصدر وحيد للمعرفة في القرن التاسع عشر الذي هو قمة الهرب الليبرالي. وقد أصبح الاعتماد على العقل المجرد وإقصاء الدين والقيم والأخلاق سمة من أبرز سمات الفكر الأوروبي المعاصر.

ولا شك أن هذه الحرية المطلقة للفرد لها انعكاساتها السيئة على الفرد نفسه من جهة، وعلى المجتمع من جهة ثانية من كل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية إلخ...

وينتج عن هذه الليبرالية تبذير الأموال كما يحدث عندما يورث الفرد أمواله لطرف لا يستحقها كحيوان أو غيره، أو ينفقها في مجالات غير منتجة كما حدث في التوسع في

منح القروض التي أخذت من البنوك لأجل شراء المساكن، وتحقيق الأرباح مطلع القرن الحادي والعشرين، فحدثت الأزمة المالية العالمية عام ٢٠٠٨، والتي هزت الاقتصاد العالمي.

بالإضافة إلى ضرر آخر يمكن أن ينتج عن الليبرالية وهو زعزعة الناحية الجماعية، والمجتمع لا يمكن أن يسير سيرًا رشيدًا إلا بالناحيتين الفردية والجماعية، وإذا تضخمت ناحية على أخرى أدى ذلك إلى اضطراب مسيرة المجتمع.

وتؤدي الليبرالية إلى ضرر أكبر في مجال الدين والمثل والقيم والمبادئ، حين تعطي الفرد الحرية المطلقة لأن يتخذ الموقف الذي يراه بشكل شخصي من الدين ومن الحلال والحرام والممارسات والقيم والمثل إلخ...، فيستحل ما يشاء ويحرم ما يشاء دون أية ضوابط لتلك الحرية الشخصية.

***

المبحث السادس
مبدأ البراغماتية

تقوم الحضارة الغربية على مبدأ خامس وهو البراغماتية، ومن أبرز المنظرين لهذا المبدأ فلاسفة كبار في أمريكا من أمثال جون ديوي، وتشارلز بيرس، ووليم جيمس، والبراغماتية تعني أن كل عمل وتصرف يجب أن يكون مرتبطًا بمصلحة أو منفعة يحققها، أو لذة ينجزها، وهذا الاستهداف مشروع ومقبول بشكل عام، لكن المشكلة أنه إذا تعارضت المصلحة مع الأخلاق، فإن الحضارة الغربية تقدم المصلحة على الأخلاق، وسيؤدي هذا التقديم للمصلحة على الأخلاق إلى غياب قيم الرحمة والتسامح والإيثار والتضحية إلخ...، وهذا سيؤدي إلى إضعاف المجتمع وخلخلة لبناته.

ويمكن أن نقدم مثالًا على ذلك، أن شخصًا يملك مالًا، وهو يريد أن يستثمر هذا المال، ويزيد من ثروته، وهذا أمر مشروع ومقبول، وهو أمام خيارين: بناء مصنع أو إنتاج أفلام خلاعية، ويمكن أن يحقق أرباحًا كثيرة وفي وقت قصير، عند توظيفه الأموال في إنتاج الأفلام الخلاعية، وستكون أرباحه أقل، وتأتي بعد عدة سنوات في حال بناء المصنع ريثما يستقر المصنع وتشتهر بضاعته، لكن إنتاج الأفلام الخلاعية يتعارض مع الأخلاق، لأن فيها مفسدة للمجتمع، لذلك فهو مدعو لعدم توظيف الأموال في هذا الطريق، لكن الحضارة الغربية تدعوه إلى توظيف الأموال في إنتاج الأفلام لأنها تهتم بالربح وزيادة الثروة، وهذا تحقيق للمصلحة والمنفعة حتى ولو تعارض مع الأخلاق.

والآن: بعد أن تعرفنا على المكونات التاريخية التي شكلت الحضارة الغربية، والمبادئ التي قامت عليها، سنتعرف في الفصول التالية على الأنظمة التي قامت عليها الحضارة الغربية من مثل النظام السياسي، والنظام الاقتصادي، والنظام الاجتماعي.

***

هذه هي المبادئ التي قامت عليها الحضارة الغربية، وكنا درسنا من قبل مكونات الحضارة الغربية، وسننتقل الآن إلى دراسة النظم التي قامت عليها الحضارة الغربية، وهي حصيلة جدلية المكونات التاريخية والمبادئ، وسندرس «النظام السياسي» ثم «النظام الاقتصادي» ثم «النظام الاجتماعي».

❊❊❊

الفصل الثالث
النظام السياسي في الحضارة الغربية

مدخل إلى النظام السياسي في الحضارة لغربية

لقد عرفت البشرية «الديمقراطية» وصورتها الأولى في اليونان على يد فلاسفتهم المؤسسين لها كأرسطو وغيره، وكانت تعرّف «الديمقراطية» في صورتها البسيطة الأولية بأنها «حكم الشعب»، ثم أخذتها أوروبا بعد عصر النهضة، وجعلتها أساس «النظام السياسي» عندها، لكنها جعلتها تقوم على المبادئ التي صاغتها الحضارة الغربية خلال مسيرتها في القرون الأربعة الأخيرة.

ونحن من أجل توضيح حقيقة «النظام السياسي في الحضارة الغربية» سندرسه من خلال مبحثين هما:

١ ـ المبحث الأول: الدولة الديمقراطية.

٢ ـ المبحث الثاني: الدولة المدنية.

***

المبحث الأول
الدولة الديمقراطية

سنتحدث عن الجانب السياسي في الحضارة الغربية، وسيشمل الحديث عن الديمقراطية والجانب المدني في الدولة الغربية.

الديمقراطية نظام سياسي جاء نتاج الحضارة الغربية، بدأ منذ عهد اليونان قبل الميلاد، لكنه أعيد إنتاجه بعد سقوط التحالف الكنسي الإقطاعي الذي قاد أوروبا في العصور الوسطى، وبعد قيام الدولة القومية الرأسمالية في العصور الحديثة، وقد جاء حصيلة التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي وقع في أوروبا منذ عهد التنوير وأدى إلى انفجار الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وهو مرتبط بشكل قوي بعدة أمور معاصرة منها: تكون الدولة القومية من جهة، والنظام الرأسمالي من جهة ثانية، وحقوق الإنسان من جهة ثالثة.

وحتى نستطيع أن نفهم الديمقراطية الغربية فهمًا صحيحًا، ونتعامل معها تعاملًا سليمًا، فيجب علينا أن نفكك محتواها، فنجد عند التفكيك أنها منظومة تقوم على عمودين: مبادئ فكرية، وآليات عملية، أما المبادئ الفكرية فمن أبرزها: حرية الفرد المطلقة، والمادية، واستهداف المنفعة واللذة والمصلحة، ونسبية الحقيقة.

أما الآليات العملية فإن أبرز مفرداتها: انتخاب الحاكم، ومحاسبته، وحرية إبداء الرأي، وتداول السلطة، وحرية إنشاء الأحزاب، ووجود برلمان إلخ...

وعندما نطلق كلمة الديمقراطية فإن الإدراك والفهم يتجه إلى العمودين: المبادئ الفكرية، والآليات العملية، ولا ينفصل العمودان عن بعضهما، ونحن قصدنا من التفكيك المساعدة على فرز ما هو مقبول وما هو مرفوض منها من أجل التعامل السليم معها. ونحن سنستعرض كلًّا من المبادئ والآليات، وسنحاول أن نتلمس مدى توافقها مع تراثنا وشخصيتنا الحضارية التاريخية.

المحور الأول: المبادئ الفكرية التي تقوم عليها الديمقراطية

وهذه المبادئ هي نفس المبادئ التي تقوم عليها الحضارة الغربية، وهي:

١. العلمانية.

٢. نسبية الحقيقة.

٣. المادية.

٤. تأليه الإنسان والشهوات.

٥. الليبرالية

٦. البراغماتية

وهذه المبادئ التي ينطلق منها المشرعون في تشريعاتهم، والسياسيون في تصرفاتهم، والماليون في بنوكهم، والقضاة في محاكمهم إلخ... لأنها هي التي تحكم، وهي التي توجّه تصرفاتهم، وهي التي ترشد جميع العاملين في مختلف المجالات الحياتية للمجتمع الغربي.

وكنت قد شرحت هذه المبادئ بالتفصيل في فقرة التعريف بمبادئ الحضارة الغربية سابقًا، فلا حاجة للعودة لها في هذا الموضع، فيمكن الرجوع إليها في مكانها لمن أراد استذكار تفاصيلها.

المحور الثاني: الآليات العملية التي تقوم عليها الديمقراطية

أما الآليات التي تقوم عليها الديمقراطية فهي كثيرة، منها: انتخاب الحاكم، ومحاسبة الحاكم، وحرية الرأي، وتداول السلطة، وحرية إنشاء الأحزاب، ووجود برلمان... وعند التمعن في الآليات العملية التي طرحتها الديمقراطية نجد أن كثيرًا منها له أصل في تراثنا، وهو ما يسهل إمكانية التعامل مع هذا الجانب، ونحن سنستعرض بعض الآليات العملية التي لها أصل في تراثنا السياسي، وهي:

الأولى ـ انتخاب الحاكم:

إن الاختيار هو الأصل في شرعية منصب خليفة المسلمين، ويؤكد ذلك أنّ أبا بكر الصديّق أصبح خليفة باختيار المسلمين له، وقد أخذ شرعيته من هذا الاختيار وليس من شيء آخر، وقد تم هذا الاختيار في سقيفة بني ساعدة.

وقد اعتبرت كتب السياسة الشرعية وكتب الأحكام السلطانية أنّ شرعية الخليفة عند أهل السنّة والجماعة تأتي من اختيار المسلمين له، واعتبرت أنّ الرسول ﷺ لم ينصّ على أحد وإنما ترك الأمر شورى بين المسلمين.

الثانية ـ محاسبة الحكام:

لقد عرف تاريخنا مبدأ «من أين لك هذا؟»، وقد وضع الرسول ﷺ هذا المبدأ الذي يعني محاسبة الحكام، وقد ذكرت كتب السيرة أن الرسول الكريم ﷺ وظف رجلًا على جباية الزكاة، فلما قدم قال: «هذا لكم وهذا أهدي إلي». فلما رأى الرسول ﷺ هذه الهدايا قدمت له من غير وجه صعد المنبر فقال: «ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا أهدي إلي. فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أو لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي أحدكم بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاه تبعر». رواه البخاري ومسلم.

وعمل على مقتضى هذا المبدأ الخلفاء الراشدون من بعده، فهذا عمر بن الخطاب كان يحاسب أهله وعماله في الأموال التي تدخل عليهم، فإن رأى أن المال المكتسب حيز من غير وجه شرعي رده إلى بيت مال المسلمين. قال عبد الله بن عمر: «اشتريت إبلًا أنجعتها الحمى فلما سمنت قدمت بها»، قال: «فدخل عمر السوق فرأى إبلًا سمانًا»، فقال: «لمن هذه الإبل؟». قيل: «لعبد الله بن عمر». قال: «فجعل يقول: يا عبد الله بن عمر بخٍ بخ! ابن أمير المؤمنين»، قال: «ما هذه الإبل؟». قال: قلت: «إبل اشتريتها وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون». قال: «فيقولون ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا

إبل ابن أمير المؤمنين، يا عبد الله ابن عمر! اغد إلى رأس مالك، واجعل باقيه في بيت مال المسلمين».

وكان عمر، إذا استعمل عاملًا على شؤون المسلمين، أحصى ما عنده من مال، فإن وجد زيادة، أخذ نصفه، ورده إلى بيت المال، وكان يأمر إذا قدم الولاة أن يدخلوا نهارًا، ولا يدخلوا ليلًا؛ كيلا يحجبوا شيئًا من الأموال. ومر مرة ببناء يبنى بحجارة وجص، فقال: لمن هذا؟ فذكروا عاملًا له على البحرين، فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها، وشاطره ماله (التكافل الاجتماعي في الإسلام، عبد الله ناصح علوان ص ٥١ ـ ٥٢).

الثالثة ـ حرية الرأي:

لقد بنى الإسلام المسلمين على إبداء الرأي فيما يدور حولهم، وقد نقلت كتب التاريخ كثيرًا من هذه الوقائع، وإحداها ما وقع بين عمر بن الخطاب وسلمان الفارسي، وبينما عمر يخطب الجمعة بالناس ـ وكانت ثياب قد أتته من اليمن فوزعها على المسلمين وأعطى كل مسلمٍ ثوبًا ـ فبدأ الخطبة وعليه ثوبان، وقال: «أيها الناس! اسمعوا وعوا». فقام سلمان من وسط المسجد وقال: «والله لا نسمع ولا نطيع».

فتوقف واضطرب المسجد، وقال: «ما لك يا سلمان؟» قال: «تلبس ثوبين وتلبسنا ثوبًا ثوبًا ونسمع ونطيع»؟! قال عمر: «يا عبد الله! قم أجب سلمان. فقام عبد الله يبرر لسلمان» وقال: «هذا ثوبي الذي هو قسمي مع المسلمين أعطيته أبي. فبكى سلمان» وقال: «الآن قُلْ نسمع، وأمر نطع. فاندفع عمر يتكلم». (أعلام الموقعين لابن القيم ٢/ ١٨٠).

ويمكن أن نعتبر أن خلق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حثت عليه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة، والذي يعتبر فرض كفاية في الأصل، وقد يتعين في بعض الأحيان، هو الذي يجعل المسلم يتحرك ليندفع في إبداء الرأي من أجل أن يصلح ما حوله، أو يزيد من مساحة الخير فيه.

الرابعة ـ مجلس المشاورة:

كان لكل خليفة من الخلفاء مجلس للمشاورة، وكان لا يبت في أمر من الأمور إلا بعد أن يشاور هذا المجلس، ويتخذ القرار المناسب، ويمكن أن نضرب مثالًا على ذلك بمناقشة عمر بن الخطاب للصحابة في موضوع اقتسام أرض السواد في العراق بعد معركة القادسية، وكان هناك رأيان بخصوص الموقف منها، الأول: يقول بتقسيمها على المقاتلين، والثاني: يقول بحبسها على مالكيها من أهل العراق، وضرب الخراج عليهم.

وكانت مبررات الرأي الثاني تستند إلى ألا ينشغل المقاتلون عن الجهاد بالحرث والزرع من جهة، ومن أجل أن تستفيد الأجيال القادمة من المسلمين من أموال الغنائم، وألا تحتكر بعض الأسر الثروة التي ستأتيها من توزيع أراضي السواد عليها من جهة ثانية، وكان عمر مع الرأي الثاني، وكان يستشهد بآيات من سورة الحشر تتحدث عن توزيع الفيء على المهاجرين والأنصار ثم تتحدث عن فئة ثالثة، وقد جاء فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وكان عمر بن الخطاب يقول: «أين نصيب هؤلاء؟» يقصد الأجيال القادمة من المسلمين، وكان يقول: «من يعينني على بلال؟»؛ لأن بلال بن رباح كان أبرز المعارضين له، ثم وافقه الصحابة على رأيه، وأنفذوا الرأي الثاني الذي يقول بإبقاء أصحابها من المالكين الفرس عليها وأخذ الخراج منهم بعد مداولات دامت ستة أشهر، ونلحظ من خلال النقول السابقة أن «مجلس المشاورة» يقابل «البرلمان» في النظم المعاصرة.

في السطور السابقة عرضنا لبعض الآليات العملية التي تقوم عليها الديمقراطية من مثل انتخاب الحاكم ومحاسبته وحرية إبداء الرأي والبرلمان، ووجدنا أن لها أصلًا في تراثنا السياسي، وبينا ذلك بشواهد واضحة، والنتيجة التي ترتبت على ذلك هي أننا يمكن أن نستفيد من التجربة الديمقراطية في هذا المجال.

استعرضنا قيام النظام الديمقراطي في الغرب، وذكرنا أنه جاء نتيجة تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية في أوروبا، وفككنا محتواه فوجدنا أنه يقوم على عمودين: مبادئ فكرية وآليات عملية، وأن المبادئ الفكرية تتعارض مع نصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة في ديننا وتراثنا، وأن الآليات العملية ـ في العموم ـ ذات أصل وجذور في تراثنا، فعلى أساس هذا التحليل يمكن أن نأخذ بالآليات العملية ونترك المبادئ الفكرية في نظامنا السياسي.

❊ ❊ ❊

المبحث الثاني
الدولة المدنية

اعتبر بعض الكتاب أن «الدولة المدنية» تقابل «الدولة العسكرية»، لكن الحقيقة أن هذا المصطلح أوروبي وجاء في مقابل «الدولة الكنسية»، وهو قد جاء نتيجة تطورات غربية في القرون الوسطى في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة إلخ...، وحتى نستطيع أن ندرك محتواه بصورة دقيقة علينا أن نرصد صورة المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى، ثم نرصد صورته بعد الثورات الصناعية والاجتماعية والسياسية، أو التي كونت العصر الحديث في أوروبا بعد الثورة الفرنسية.

من المعلوم أن أوروبا في العصور الوسطى كانت تحكمها الكنيسة، وكان أبرز مفهومين تقوم عليهما الديانة المسيحية هما: المقدس والمدنس، فكان المقدس هو الله والآخرة والروح، وكان المدنس هو الإنسان والدنيا والجسد والمرأة، لذلك فيجب أن يتجه الإنسان إلى هذه المقدسات، ويفني ذاته فيها، ويترك كل ما عداها، فيجب أن يوجه الإنسان عقله إلى الله ذكرًا وثناءً وتمجيدًا وعبادة، ويلغي التفكير فيما سواه، وعليه أن يوجه قلبه إلى الآخرة ويهمل الدنيا ومتاعها وشهواتها وملذاتها إلخ...، وعليه أن يقتل جسده ويدمر حواسه التي تكبل روحه لكي تنطلق هذه الروح وتتخلص من قيودها، والرهبنة خير وسيلة للانتقال من المدنس إلى المقدس، والرهبنة تعني عدم الزواج، واعتزال الحياة في دير من الأديرة، وممارسة طقوس متنوعة في تعذيب الجسد.

إن القيادة الكنسية التي تزعمت معركة المقدس مع المدنس في المجتمع الأوروبي، قادت معركة أخرى مع علماء أوروبا الذين طرحوا نظريات وأقوالًا تناقض ما قالت به الكنيسة والكتب المقدسة من مثل: أن الشمس مركز الكون وهو الذي توصل إليه كوبرنيكوس، وهو يناقض ما تقول به الكنيسة وهو أن الأرض مركز الكون، وأدت هذه

المعركة إلى عقد محاكمات ومحاسبات لكثير من علماء أوروبا بتهمة الكفر والزندقة والانحراف عن الدين، وأدت تلك المحاكمات إلى إعدام الكثيرين منهم.

قادت الكنيسة معركتين:

الأولى: مع الفطرة البشرية في كل ما تتوق إليه من الدنيا والشهوات والمتاع والملذات إلخ...

الثانية: مع العقل البشري الذي كان يقرر حقائق واضحة وتأتي الكنيسة لتلغيها بكلام غير ذي قيمة علمية.

وأدت هاتان المعركتان إلى انفجار أوروبا في وجه الكنيسة، وقامت ثورات متعددة لتصحح الوضع الخاطئ عند الكنيسة، فما الذي حدث؟

جعلت الثورات المقدس مدنسًا، والمدنس مقدسًا، أي أنها قلبت المعادلة، وكان الأولى أن تصحح موقف الكنيسة من الدنيا والمرأة والشهوات والجسد إلخ...، وترفع الدناسة عنها، وتعتبرها حاجات طبيعية وفطرية، وتقر بخطأ ترذيلها، لكنها ذهبت أبعد من ذلك فقدّست الدنيا والجسد والمرأة، بل ألّهتها.

واعتبرت الحياة مادة في أصلها ووجودها وتفرعاتها، واعتبرت كل حديث عن الروح وعن الجنة والنار والملائكة إنما هو حديث خرافة وأوهام إلخ...، ومن الواضح أن هذه المواقف إنما جاءت كردود أفعال على المواقف الكنسية الخاطئة.

وقد ولدت تلك الثورات التي قامت في القرن الثامن عشر نوعين من الدول في القرن العشرين جسدتا مقولة «تدنيس المقدس وتقديس المدنس» خير تجسيد وهما: الاتحاد السوفيتي، والعالم الحر.

١ ـ الاتحاد السوفيتي والشيوعية:

لقد جسد الاتحاد السوفييتي الشيوعي ثنائية الأزمة التي انتهت إليها أوروبا وهو

«تدنيس المقدس وتقديس المدنس» خير تجسيد، فأصبح الإلحاد هو الأصل الذي يقوم عليه، وأصبح يعلن أن الدين خرافة وأوهام، وأنه أفيون الشعوب، وأنه ليس هناك عالم غيب، وأن الملائكة والشياطين والجنة والنار أوهام من اختراع الأغنياء لاستغلال الفقراء إلخ... ومن الجدير بالذكر أن المجتمعات البشرية لم تعرف مجتمعًا قام على الإلحاد، صحيح أنها عرفت بعض الملحدين، لكنها لم تعرف مجتمعًا خاليًا من الإقرار بوجود إله، بغض النظر عمن هو الإله، فقد يكون كوكبًا أو شجرة أو شخصًا أو جبلًا... إلخ. ولم تعرف مجتمعًا خاليًا من دور العبادة، وربما كان المجتمع الأول الذي قام على الإلحاد في التاريخ هو المجتمع الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، وهذا تعبير صارخ عن الشق الأول من الثنائية وهو «تدنيس المقدس» أن يصل مجتمع إلى هذا الوضع من الإلحاد والتنكر لركن أساسي وكبير من أسس الفطرة وهو ركن (التعبد).

أما في مجال «تقديس المدنس» وهي الدنيا والمرأة والشهوات إلخ...، فإن الشيوعية قد اعتبرت أن الحياة مادة وليس وراء المادة شيء، واعتبرت على لسان «إنجلز» أن ستر العورة طريقة صريحة لامتلاك النساء، واعتبرت كذلك أن ولادة الحجاب جاءت مترافقة مع ولادة الملكية الفردية، لذلك سينتهي الحجاب عند انتهاء الملكية الفردية، وستعود العلاقات الجنسية مشاعة كما كانت في المجتمع القديم: كل النساء لكل الرجال.

٢ ـ العالم الحر والرأسمالية:

يقوم العالم الحر الرأسمالي على نفس الأسس المادية التي يقوم عليها المعسكر الشيوعي في مجال «تدنيس المقدس»، فهو يتنكر للغيوب من: إله وملائكة وآخرة وروح إلخ...، ويستهزئ بها، ويرذّل الإيمان بها، ويسفّل كل القيم المتعلقة بها ويعدّها خرافة وأوهامًا وشعوذة إلخ... أما في مجال (تقديس المدنس) فإن هذا المعسكر يعلي ويعظّم بل ويؤلّه كل مفردات المدنس من: الدنيا والجسد والمرأة والشهوة إلخ...، ومما يؤكد ذلك حجم الإنفاق على الجنس في الإنترنت، والصورة التي تستغل بها المرأة في الدعاية

والإعلان، وحجم العري الذي يسود المجتمع الغربي، والتشريع للشذوذ الجنسي بشقيه: اللواط والسحاق، وقبوله حتى في الكنائس.

هذه هي الظروف التاريخية التي ولّدت مصطلح «الدولة المدنية» مقابل «الدولة الكنسية»، فأصبح مصطلح «الدولة المدنية» يعني التمركز حول الإنسان وجسده ولذاته وشهواته، مقابل التمركز السابق حول الله في «الدولة الكنسية»، وأصبح يعني الاهتمام بالدنيا وشؤونها وتطويرها في «الدولة المدنية» مقابل الاهتمام بالآخرة والروح في «الدولة الكنسية».

ومن الواضح أن القصور في مصطلح «الدولة المدنية» جاء من أنه قصر اهتمام الدولة على جسد الإنسان وشهواته وملذاته ومنافعه دون الاهتمام بالجانب الروحي عند الإنسان، وبالجانب العبادي الذي يصله بربه، ومن أنه قصر اهتمام الدولة بشؤون الدنيا من اقتصاد وزراعة وإعمار من جهة ثانية مع التنكر وعدم الاهتمام لما يتعلق بالله والآخرة وما ينتج عنها.

من الواضح أن إرثنا الديني والثقافي لم يعرف ثنائية المقدس والمدنّس، بل وجه ديننا المسلم إلى الدنيا والآخرة، وإلى الاهتمام بالجسد والروح، وتؤكد ذلك آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول ﷺ، فقد جعل الإسلام الدنيا هدفًا في حد ذاتها، وطلب أن يسأل العبد ربه أن يؤتيه الحسنات منها، فقال جل جلاله: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وعدّ الإسلام إعمار الأرض هدفًا من أهداف خلق الإنسان فقال جل جلاله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

ويتضح استهداف إعمار الأرض في قول الرسول ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم

فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها»[١]. فالرسول ﷺ في هذا الحديث يحض المسلم على أن يغرس الفسيلة التي بيده مع إدراكه قرب قيام الساعة، وانتهاء دورة الحياة، وهذا يدل على تعظيم الإسلام لإعمار الدنيا.

وقد تميز الإسلام بين أديان الأرض جميعًا في أنه اعتبر أي عمل دنيوي شهوي يمكن أن يكون عبادة، فقد قال رسول الله ﷺ في جمع من الصحابة: «في بضع أحدكم صدقة». فاستغرب الصحابة ذلك وقالوا: «يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟». فقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»[٢].

وقد اهتم الإسلام بالجسد واعتبره قيمة في حد ذاته، يجب أن يحافظ عليها، والمسلم يحاسب عليها يوم القيامة أمام الله، لذلك قال الرسول ﷺ: «إن لجسدك عليك حقًا»[٣]، ورفض الإسلام أي تعذيب للجسد تحت دعوى العبادة، فقد ذكرت الأحاديث أن الرسول ﷺ رأى رجلًا واقفًا تحت الشمس، فسأل عنه: فقالوا: «أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم، ويصوم». فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»[٤].

وجاء في حديث آخر عن أنس أنه قال: «دخل النبي ﷺ إلى المسجد فإذا حبل ممدود

---

(١) رواه أنس بن مالك، وحكم عليه الشيخ ناصر الدين الألباني بأنه صحيح، وأورده في «صحيح الجامع» تحت رقم ١٤٢٤. وفي «صحيح الأدب المفرد» تحت رقم ٣٢١.

(٢) رواه أبو ذر الغفاري عن رسول الله ﷺ وأخرجه مسلم في صحيحه (١٠٠٦).

(٣) روى عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا» رواه البخاري (٥١٩٩) ومسلم (١١٥٩).

(٤) رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رقم (٦٧٠٤) في كتاب الأيمان والنذور.

بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا الحبل لزينب، فإذا فترت تعلّقت، فقال النبي ﷺ: حلّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد»[1] (متفق عليه).

ومن الجلي أن الدولة في التاريخ الإسلامي لم يتوجه اهتمامها فقط إلى شؤون المساجد والعبادة والتعليم الديني وتحفيظ القرآن إلخ...، بل توجه اهتمامها ـ بالإضافة إلى ما سبق ـ إلى شؤون الدنيا بمختلف صنوفها من زراعة وتجارة واقتصاد وإدارة وأسرة وتعليم إلخ...، ومما يؤكد اهتمام الدولة الإسلامية بالدنيا أن القرآن الكريم أمر بأن تصرف أموال الزكاة إلى الفقراء والمساكين، وفي إعتاق العبيد، وفي تأليف القلوب إلخ...، ولم يصرف منها شيء لدور العبادة أو للعلماء والمشايخ القائمين على المساجد، وعلى الأصح أنه لا يجوز أن تصرف أموال الزكاة على بناء دور العبادة أو القائمين عليها، بل يجب أن تكون من مصادر أخرى، فقد قال جل جلاله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

لقد اهتمت الدولة الإسلامية بأمور الله والإنسان، والآخرة والدنيا، والروح والجسد، وقد اتضح ذلك من مقاصد الشريعة التي توصّل إليها علم أصول الفقه الإسلامي، فقد استقرأ الفقهاء أحكام الشريعة فوجدوا أن جميع تلك الأحكام تهدف إلى تحقيق خمسة مقاصد هي: حفظ الدين، حفظ العقل، حفظ النفس، حفظ المال، حفظ النسل، ومن البيّن أن هناك مقصدًا واحدًا من مقاصد الشريعة يتعلق بالدين، وهناك أربع مقاصد تتعلق بالإنسان وعقله وماله ونفسه وعرضه، وهذا يدل على مدى اهتمام الشرع الإسلامي والدولة الإسلامية بالإنسان والدنيا.

---

(١) رواه البخاري مرفوعًا عن أنس بن مالك في صحيحه (باب التهجد بالليل) (باب ما يكره من التشدد في العبادة) رقم (١١٥٠).

الخلاصة: قد جاء مصطلح «الدولة المدنية» مقابل «الدولة الكنسية»، وهو مصطلح له مضامين محددة منها: التمركز حول الإنسان دون الالتفات إلى ما يتعلق بالله، والاهتمام بالدنيا فقط، دون أي اعتبار للآخرة، وإطلاق شهوات الجسد وملذاته دون أي اعتبار للروح، لكن دولتنا الإسلامية على مدار التاريخ الماضي قامت على أداء الواجبات نحو الله والإنسان، والدنيا والآخرة، والروح والجسد.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
النظام الاقتصادي في الحضارة الغربية

مدخل إلى النظام الاقتصادي في الحضارة الغربية

تعتبر «الطبقة البرجوازية» هي عماد النظام الاقتصادي في أوروبا، وهي التي ورثت «النظام الإقطاعي»، وترتبط «الطبقة البرجوازية» بالنظام الرأسمالي ارتباطًا وثيقًا، وتقوم «الرأسمالية» على استهداف المال وجمعه وتكديسه دون النظر إلى أية قيمة أخرى، ونشأت «الشيوعية» كردة فعل على هذه «الرأسمالية المتوحشة» والتي جعلت المجتمع ينقسم إلى طبقتين: الأولى: تملك كل شيء، والأخرى: لا تملك شيئًا.

وسندرس النظام الاقتصادي ضمن مبحثين:

المبحث الأول: النظام الرأسمالي: نشأته وتطوره.

المبحث الثاني: النظام الشيوعي من خلال آراء كارل ماركس.

***

المبحث الأول
النظام الرأسمالي

تعريف الرأسمالية:

الرأسمالية نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية، ويقوم على أساس إشباع حاجات الإنسان الاقتصادية، وتنمية الملكية الفردية والمحافظة عليها، متوسعًا في مفهوم الحرية، معتمدًا على سياسة فصل الدين نهائيًا عن الحياة. ولقد ذاق العالم بسببه ويلات كثيرة نتيجة إصراره على كون المنفعة واللذة هما أقصى ما يمكن تحقيقه من السعادة للإنسان. وما تزال الرأسمالية تمارس ضغوطها وتدخلها السياسي والاجتماعي والثقافي وترمي بثقلها على مختلف شعوب الأرض.

فالرأسمالية نظام اقتصادي في أساسه ولكنه قائم على فصل الدين عن الحياة الاقتصادية تمامًا؛ لئلا تتقيد به بل تنفلت منه كما تريد، وهذا الإيضاح للرأسمالية هو الحاصل من عدة تعريفات ذكرها الباحثون حول حقيقة الرأسمالية ومعانيها.

وبعض العلماء يعرفها بأنها تخزين ـ أو احتكار على الأصح ـ أصحاب الأموال لمنافعهم وبيعها وقت غلاء الأسعار.

ويجب أن نفهم بشكل واضح أن كل المبادئ التي قامت عليها الحضارة الغربية وهي: العلمانية، ونسبية الحقيقة، وتأليه المادة والشهوات، والليبرالية، والبراغماتية سنجدها متجذرة في كل تفصيلات الحياة الرأسمالية.

تطور الرأسمالية:

وصف الدكتور نظام محمود بركات الرأسمالية بأنها «مذهب ناتج عن ظهور المدرسة الطبيعية التي سادت أفكارها فرنسا في القرن الثامن عشر الميلادي، وهي: تقديس حقوق الإنسان وتركه يعمل كما يحب تحت شعار: (دعه يعمل... دعه يمر)». أي أن الإنسان حر

في كل تصرفاته الاقتصادية ينطلق كما يشاء بعيدًا عن تعاليم الدين وأحكامه.

وربما يقصد بالمدرسة الطبيعية الإلحاد الذي كان قبل ظهور شيوعية «كارل ماركس». وأشهر من دعا إلى هذا المذهب هو «جوب ستيوارت مل» الذي نشط في الدعوة إلى قيام الأفكار الفردية خصوصًا في الجوانب السياسية، و«هربرت سبنسر» الذي دعا إلى إتاحة الحرية الفردية للشخص دون أي تدخل من الدولة غير الحماية العامة، وغيرهما ممن جاء بعدهما.

وهذا يدل على أن الرأسمالية في بدايتها كانت نظامًا سيئًا غاية في الجشع وعدم مراعاة مصالح الغير، ثم تطورت وأدخلت على النظام الرأسمالي بعض الإجراءات للتقليل من مساوئه كالتأمينات الاجتماعية والنقابات إلخ...، والتي لا تعتبر من صميم هذا النظام. وحتى هذه التعديلات لم تكن على المستوى المطلوب للحد من جشع الرأسمالية العاتية، وقد خطت بريطانيا أول الخطوات في تطوير الرأسمالية ثم تلتها أمريكا ثم بقية الدول الأوروبية، فتدخلت في شؤون المواصلات والتعليم ورعاية حقوق المواطنين وسن القوانين ذات الصبغة الاجتماعية كالضمان الاجتماعي ورعاية الشيخوخة والبطالة والعجز والرعاية الصحية وتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة إلخ...، ويجب أن يدرك القارئ أنه مع كل هذه التطورات لا زالت الرأسمالية شرًّا مستطيرًا، وأنها بخلاف ما جاء به الإسلام نحو المال والتعامل به.

الأفكار التي تقوم عليها الرأسمالية:

١. البحث عن الربح بشتى الطرق والأساليب إلا ما تمنعه الدولة لضرر عام كالمخدرات مثلًا.

٢. تقديس الملكية الفردية، وذلك بفتح الطريق لأن يستغل كل إنسان قدراته في زيادة ثروته وحمايتها وعدم الاعتداء عليها وتوفير القوانين اللازمة لنموها واطرادها، وعدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية إلا بالقدر الذي يتطلبه النظام العام وتوطيد الأمن.

٣. المنافسة والمزاحمة في الأسواق Perfect Competition.

٤. نظام حرية الأسعار Price System وإطلاق هذه الحرية وفق متطلبات العرض والطلب، واعتماد قانون السعر المنخفض في سبيل ترويج البضاعة وبيعها.

٥. فصل الدين عن الحياة على أن لا يتدخل الدين وقيمه ومثله في أي جانب من الجوانب الاقتصادية، إنما تكون معيارية الاقتصاد هي الربح ونمو الثروة دون الالتفات إلى قيم أخرى من خارج الاقتصاد.

لذلك نشأت من مجمل هذه الأفكار والوقائع «الرأسمالية المتوحشة»، وارتبطت بالطبقة البرجوازية، وهي التي استعمرت كلًّا من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية خلال القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين، وسرقت خيرات هذه القارات ونقلتها إلى أوروبا، ثم جاءت الولايات المتحدة الأمريكية في القرن العشرين لتكمل السيرة، واستمرت هذه الدول الرأسمالية في أوربا وأمريكا في سرقة خيرات واستغلال وتسخير كل من أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية من خلال منظمات الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي التي تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية، وكان الاستعمار خلال كل تلك القرون أسوأ صورة في تدبير واستغلال وسرقة الشعوب الأخرى على مدار التاريخ.

❋❋❋

المبحث الثاني
النظام الشيوعي من خلال آراء كارل ماركس

عاش كارل ماركس ما بين (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)، وقد ولد في ألمانيا لأسرة يهودية، ثم أكمل بقية حياته في لندن في إنجلترا، وألف كتاب (رأس المال)، ووضح فيه النظرية الشيوعية، فما هي النظرية الشيوعية التي طرحها كارل ماركس؟

قامت النظرية الشيوعية على شقين متلازمين:

الأول: النظرةُ إلى الكون

اعتبرت النظرية الشيوعية أن الكون مادة، وأن الفكر انعكاس للمادة، وأن الغيوب التي تتحدث عنها الأديان: الله، الجنة والنار، الملائكة والشياطين إلخ...، كلها أوهام وخرافات وخزعبلات اختلقها رجال الدين من أجل استغلال الجماهير، وتخديرهم، واعتبرت الدين أفيون الشعوب، واستفاد ماركس في تقعيد الجانب المادي من الماركسية من فلاسفة ماديين سبقوه أبرزهم فيورباخ، كما استفاد من هيجل في طرحه الجدلي، لكنه حوله من جدل مثالي إلى جدل مادي.

الثاني: النظرة إلى الاقتصاد

تقوم النظرة إلى الاقتصاد على ثلاثة محاور:

المحور الأول: تطور وسائل الإنتاج:

اعتبر كارل ماركس أن تطور وسائل الإنتاج هو الأصل في نشوء الطبقات الاجتماعية، وهو الذي يولد الأفكار والقيم والمثل والأخلاق.

فقد كانت هناك شيوعية أولى وقد سادت فيها القيم الشيوعية وأبرزها «من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته»، ثم بدأت مرحلة الرعي، ثم مرحلة الزراعة، وكان المحراث هو الآلة التي تقوم بالحرث، ثم جاءت الآلة البخارية، ثم جاءت الآلة الكهربائية إلخ...،

فتولدت البرجوازية وكانت البروليتاريا طبقة العمال التي واجهت البرجوازية، وكان الصراع بينهما بعد أن انتهى دور طبقة الفلاحين وانتهى الإقطاع.

وقد أكد ماركس أن البروليتاريا ستنتصر على البرجوازية، وستقوم «دكتاتورية البروليتاريا» من أجل إنهاء عهد الظلم الاقتصادي والاجتماعي الذي مارسته البرجوازية لتعود إلى الشيوعية الأولى التي تقوم على قاعدة «من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته».

المحور الثاني: نظرية فائض القيمة:

اعتبر ماركس أن البرجوازية تسرق جهود العمال من خلال إعطائهم أجرًا أقل من قيمة الجهد الذي يبذله العامل في عمله، وأن الفرق بين قيمة الجهد وبين المبلغ المدفوع هو الذي يولد الرأسمالية، لذلك اعتبر أن الرأسمالية قامت على سرقة جهود العمال، لذلك فإن العمل يكون باستيلاء «طبقة البروليتاريا» على السلطة، وتأميم كل وسائل الإنتاج، ومن خلال دكتاتورية البروليتاريا ومن خلال قمع طبقة العمال للطبقة البرجوازية تتولد الاشتراكية ثم الشيوعية.

المحور الثالث: إلغاء التملك:

اعتبرت الشيوعية أن التملك غريزة مكتسبة لذلك فإنها ألغت التملك، وأممت كل وسائل الإنتاج، واعتبرت أنها ستصل إلى الشيوعية الثانية من خلال إلغاء وسائل التملك، لذلك عندما أراد ستالين تطبيق الشيوعية على الفلاحين، قام بنزع ملكيتهم للأرض فثاروا وقتل منهم ١٦ مليونًا من أجل تطبيق تأميم الأرض وتأميم وسائل الإنتاج.

من الواضح أن أبرز خطأين وقعت فيهم الشيوعية هما:

١. إعلان الإلحاد والكفر بالله، وهذا أكبر خطأ وقعت فيه الشيوعية، وبهذا اصطدمت مع أصل من أصول الفطرة وهو فطرة التعبد وفطرة التدين وفطرة التقديس عند الإنسان.

٢. إعلان إلغاء التملك، وهي في هذا الموقف اصطدمت مع فطرة التملك المغروسة

في الإنسان قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

لقد قصم الشيوعية خطآن وهما: إنكار فطرة التدين، وإنكار فطرة التملك، وجعلاها تسقط، وهو ما أكدناه في أكثر من دراسة بأن أي صدام مع الفطرة سيجعل الفطرة تنتصر في النهاية، لكن الموضوع يأخذ زمنًا، فقد انتصرت الفطرة مرتين خلال العصور الحديثة مع المسيحية التي صادمت فطرة العلم وفطرة شهوة النساء والدنيا، ومع الشيوعية عندما صادمت فطرتي الإيمان بالله والتملك، فكيف حدث انتصار الفطرة على الشيوعية، سنوضح ذلك في دولتين هما: الاتحاد السوفيتي أولًا والصين ثانيًا.

الاتحاد السوفيتي:

أعلن الاتحاد السوفيتي الإلحاد وإلغاء التملك، وبدأ تطبيق هذين المبدأين منذ لينين، ولكن التطبيق كان يواجه صعوبات وعقبات وبخاصة في عهد ستالين ـ كما ذكرنا ـ من ناحية إلغاء التملك، فقتل ستالين الملايين من أجل تنفيذ هذا المبدأ في كل ولايات روسيا.

واضطرت القيادة الروسية في مرحلة بريجينيف الذي حكم الاتحاد السوفيتي ١٩٦٤ ـ ١٩٨٢ إلى إعطاء العمال نسبة من الأرباح في المصانع التي يعملون فيها من أجل تشجيعهم على زيادة الإنتاج، وفي هذه الخطوة تراجَعَ عن إلغاء التملك، وأقرَّ بفطرة التملك.

ولما سقط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ على يد بوريس يلتسن لم يسقط نتيجة تدخل خارجي، إنما سقط على يد أبنائه الشيوعيين الذين انتقلوا إلى النظام الرأسمالي الديمقراطي، وفي ذلك آية من آيات الله، لأن جميع الأنظمة تسقط عادة نتيجة تدخل قوة خارجية، لكن هذا النظام سقط على يد أبنائه القائمين عليه من رأس النظام ومعاونيه، والسبب في قيام هذه الآية

هو كون هذا النظام قام على قاعدتين معاديتين للفطرة وهما: الإلحاد ومنع التملك، والإنسان في الحقيقة مفطور على الإيمان بالله ومفطور على حب التملك.

لذلك عندما سقط النظام الشيوعي عام ١٩٩١ عادت جماهير الشعب الروسي إلى الدين، وذكر أن عدد الذين أعلنوا عودتهم إلى الدين المسيحي نسب كبيرة من الشعب الروسي، وفتحت الكنائس، وذكرت الإحصاءات أرقامًا كبيرة من هذه الكنائس التي فتحت أبوابها للمتعبدين والمؤمنين بالمسيحية.

الصين:

لقد حكم النظام الشيوعي الصين عام ١٩٤٨ بقيادة ماوتسي تونغ، وبقيت الصين متخلفة في كل مجال إلى وقت قريب، ولكن وضعها الاقتصادي تغير وتقدم تقدمًا كبيرًا إذ أصبحت تنافس أمريكا اقتصاديًا بعد أن تحولت من النظام الشيوعي إلى النظام الرأسمالي.

لقد بقي الحزب الشيوعي هو الذي يحكم قبضته على الصين، وبقي الجانب المادي من النظرية الشيوعية هو الذي يحكم الصين، لكن الصين انقلبت على النظرية الشيوعية التي تمنع التملك، وأباحت امتلاك الشركات والمصانع، وأعطت الدولة القروض للأفراد والشركات، وبهذا تنازلت عن مبدأ من مبادئ الشيوعية وهو إلغاء حق التملك، وعملت بمبدأ السماح بالتملك متجاوزة النظرية الشيوعية.

وبذلك تطورت الصين اقتصاديًا وأصبحت إحدى أقوى اقتصاديات العالم، ولم يتم لها ذلك إلا بعد أن سايرت الفطرة في حق التملك، وانتقلت من صف عداوة الفطرة إلى الاعتراف بها ومصادقتها عوضًا عن معاداتها.

الخلاصة:

والآن ما الأخطاء التي وقعت فيها النظرية الشيوعية التي وضعها ماركس؟ وقعت النظرية الشيوعية في عدة أخطاء، وهي:

١. لقد بنى ماركس نظريته في جانب منها على الأحلام والأوهام عندما توهم أنها ستحقق حرية الإنسان في وجه تغول الطبقة البرجوازية التي اعتبرها متوحشة في الاستحواذ على المال، وهو من أجل التخلص من شرور البرجوازية شرعن العنف الثوري، وشرعن «دكتاتورية البروليتاريا»، وعند التطبيق السوفيتي للشيوعية في عهد ستالين، تملكت الدولة أكبر منظومة مخابراتية تعسفية مخيفة في التاريخ، لذلك قتل ستالين عشرات الملايين من البشر من أجل تطبيق الشيوعية في مجال إلغاء التملك، وهذا أبرز خطأ وقعت فيه، وعادت فيه فطرة أصيلة في الإنسان، وهي حب التملك، وخسرت في مواجهة هذه الفطرة.

٢. لقد وقعت النظرية الشيوعية في خطأ آخر وهو شرعنة الإلحاد على مستوى الدولة، وهي الدولة الأولى في التاريخ التي تقوم بهذا العمل.

٣. توهمت النظرية الشيوعية إمكانية إلغاء دور الدولة بعد قيام دولة العمال والانتصار على البرجوازية، وأنه ستسود القاعدة التي رسمتها الشيوعية وهي «من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته»، لكن الدولة ازدادت توسعًا، وتضخمت آلتها القمعية، وازداد تدخلها في شئون الجماهير وفي تفاصيل حياتهم.

٤. توقع ماركس أن تطبيق الشيوعية سيبدأ من إنكلترا؛ لأنها كانت الدولة الصناعية الأولى في العالم آنذاك. وكانت الطبقة العمالية هي الأوسع في العالم، لكن توقعه لم يكن صائبًا، فبدأت الشيوعية من روسيا، ولم تكن دولة صناعية، بل كانت دولة زراعية ذات أغلبية فلاحية.

❊❊❊

الفصل الخامس
النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية

مدخل إلى النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية

تشكل الطبقة البرجوازية العنصر الرئيسي في صورة النظام الاجتماعي للحضارة الغربية، وقد درسنا تشكل هذه الطبقة في مكونات الحضارة، ولا حاجة للعودة إلى دراستها هنا، ولكننا سندرس ثلاثة أمور ضمن ثلاثة مباحث، وهي: النسوية، والنظرية الجنسية عند فرويد، ولوائح حقوق الإنسان.

وستعمق هذه المباحث الثلاثة رؤيتنا ومعرفتنا للنظام الاجتماعي في الحضارة الغربية، فسيعرفنا مبحث «النسوية» بتطور قضية المرأة في الحضارة الغربية، وسيعرفنا مبحث «النظرية الجنسية عند فرويد» بمدى استغراق الحضارة الغربية في الشهوات، وسيعرفنا مبحث «لوائح حقوق الإنسان وتطوراتها» مدى مصداقية الحضارة الغربية في الجانب الاجتماعي، لذلك سندرس هذه المباحث ضمن الترتيب التالي:

المبحث الأول: النسوية.

المبحث الثاني: النظرية الجنسية عند فرويد.

المبحث الثالث: لوائح حقوق الإنسان.

❊❊❊

المبحث الأول

النسوية

النسوية: مضمونها، وتطوراتها

لقد جاءت «النسوية» في الحضارة الغربية مشكلة ناتجة من عدة عوامل منها:

١. موقف الكنيسة الخاطئ من المرأة.

٢. مفهوم المقدس والمدنس في المسيحية، وربط الدنس بالمرأة.

٣. نشوء الطبقة البرجوازية، وحاجة الطبقة البرجوازية إلى الأيدي العاملة، واستغلال المرأة في ذلك.

وسندرس العوامل السابقة، ونحدد دور كل عامل من هذه العوامل في نشأة ظاهرة «النسوية».

أولًا: موقف الكنيسة من المرأة:

اعتبرت الكنيسة في كتبها المقدسة أن المرأة هي التي أغوت آدم، ودفعته إلى الأكل من الشجرة المحرمة التي نهاه الله جل جلاله عن أكلها، لذلك حملت الكنيسة المرأة مسؤولية الخطأ الذي وقع فيه آدم، والذي من أجله أنزل آدم وحواء إلى الأرض، وبسبب هذه الخطيئة التي حملها الأبناء جاء المسيح عليه السلام من أجل أن يكفّر عن خطايا البشرية، لذلك دفع المسيح دمه فداء للبشرية وثمنًا لخطاياها.

ومن هنا كانت النظرة إلى المرأة لدى الكنيسة بشكل خاص، والمسيحية بشكل عام نظرة سوداء، فهي السبب في وقوع آدم في المعصية، وهي التي قادته إليها، وهي التي كانت السبب في تحميل البشرية لهذا الإثم وهذه المعصية.

مع أن القرآن الكريم عندما تحدث عن هذه القصة لم يجعل حواء هي السبب، بل

أسند المعصية إلى كل من آدم وحواء فقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة: ٣٥ ـ ٣٦].

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف: ٢٢ ـ ٢٤].

من الوضح حسب آيات القرآن الكريم السابقة أن نهي الله تعالى كان لكل من آدم وحواء، ألا يأكلا من الشجرة، وأن كليهما أقدم على المعصية، وأن كليهما اعترف بالخطأ، وطلب المغفرة من الله، ومن البين أن القرآن الكريم لم يحمل المرأة وحدها مسؤولية المعصية كما ورد في الديانات الأخرى.

ثانيًا: مفهوم المقدس والمدنس في المسيحية:

تقوم المسيحية التي رعتها الكنيسة على ثنائية المقدس والمدنس، فالمقدس هو الله والآخرة والروح، والمدنس هو الإنسان والدنيا والجسد.

ومن البين أن المدنس هو الدنيا بما فيها من نساء وأموال ومساكن ومصانع ومزارع وخيول وأنعام إلخ...، والمدنس ـ كذلك ـ هي الشهوات المرتبطة بالمرأة وحب المال وحب البنين إلخ...، والمدنس كذلك الجسد الذي يدفع إلى هذه الشهوات.

ومن الواضح أن المقدس هو الآخرة وما فيها من خلود وراحة نفس، والمقدس ـ كذلك ـ هو الروح التي تقود الجسد، والمقدس كذلك هو الله الذي يتجه إليه الإنسان.

قادت المعادلة السابقة من ثنائية المقدس والمدنس، إلى اعتبار المرأة أصلًا كبيرًا من أصول المدنس، لأنها تتجه إليها شهوة النساء، لذلك اعتبرت الكنيسة المرأة رأس الرذائل،

واعتبرت الزواج الشرعي زنًا مهذبًا، كما دعت إلى الزهد في الدنيا والمرأة والتوجه إلى الرهبنة من أجل الابتعاد عن مدنس المرأة، واعتمدت الكنيسة في سبيل ذلك الرهبنة كأصل من أصول الدين والابتعاد عن الدنيا والزواج ودنس شهوة النساء.

ليس من شك بأن هذه الثنائية تقوم على عدة أمور مخالفة للفطرة، وهي:

١. اعتبار شهوة النساء مدنسًا، والدعوة إلى الرهبنة من أجل الابتعاد عن قضاء تلك الشهوة. مع أن شهوة النساء أصل مركوز في الفطرة الإنسانية، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

٢. من الواضح أن دعوة الكنيسة إلى اعتبار الدنيا وما فيها من مال ومزارع ومصانع ونساء دنسًا، والدعوة إلى الزهد في هذا المتاع والدنيا، أمر مناف للفطرة؛ لأن الإنسان خلقه الله مفطورًا على حب المال والمتاع والدنيا، فقال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، ولأن العمران في الأرض مرتبط بتحقيق تلك الفطرة، وما خلق الله تلك الفطرة إلا من أجل أن نشبعها، وليس الخطأ في إشباعها لكن الخطأ في الاستغراق بها، واستعبادها للإنسان.

وقد أنتجت هذه الأقوال والأفكار المعادية للفطرة موقفًا معاديًا للمرأة، وجعلها محط احتقار، وربطها بالجانب المدنس من الدين، وجعل المقدس هو الابتعاد عن شهوة المرأة والنساء وربطها بالرهبنة، وكانت هذه النظرة سببًا في نشوء ظاهرة النسوية، بالإضافة إلى الخطأ السابق الذي ذكرته وهو ربط الخطيئة بالمرأة وهي الخطيئة التي قدم المسيح دمه من أجل فداء بني الإنسان منها.

ثالثًا: الطبقة البرجوازية:

كانت أوروبا خاضعة للطبقة الإقطاعية في القرون الوسطى، وكان الفلاحون وأسرهم

مرتبطين بالأرض من حراثة وزراعة، لا يستطيعون الفكاك منها ومن قبضة الإقطاعي، ولما نشأت الطبقة البرجوازية في المدن بعد اختراع الآلة البخارية، ثم الكهربائية، ومجيء أطنان الذهب والفضة من الأميركتين أصبحت المعامل التي أنشأتها الطبقة البرجوازية في المدن بحاجة إلى العمال، لذلك بدأ الفلاحون يتركون الأرض ويفرون منها إلى المدن من أجل العمل في المصانع الموجودة فيها، ولما كان الرخص في الأيدي العاملة عاملًا رئيسيًا في زيادة الأرباح لدى أصحاب المعامل والمصانع والطبقة البرجوازية، كانت النساء أقل أجرًا من الرجال، مع أنهن يؤدين العمل نفسه، وهذا كان سببًا من أسباب إحساسهن بالظلم، ونشوء «الحركة النسوية».

ما المراحل التي مرت بها «الحركة النسوية»؟

مرت النسوية بأربع مراحل، هي:

المرحلة الأولى: نسوية الرد على مظلومية المرأة:

نشطت هذه النسوية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر، وهي تعود إلى كتابات ماري ولستون كرافت (١٧٥٩ ـ ١٧٩٧)، جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ ـ ١٨٧٣)، هاريت تايلور (١٨٠٧ ـ ١٨٥٨) وغيرها.

كانت تدعو النسوية في تلك المرحلة إلى التخلص من استعباد الرجل والاستقلال عنه، وأخذ دور مساو للرجل في السياسة والعمل والاقتصاد والتعليم.

وكان هذا الطرح سليمًا ومبررًا؛ لأن المرأة كانت تعاني من الظلم والتمييز بإزاء الرجل في فرص العمل والأجر والتعليم، فكان أجرها أقل من أجر الرجل، وهذا ما كانت تقوم به البرجوازية من أجل زيادة أرباحها.

المرحلة الثانية: النسوية الليبرالية:

ظهرت النسوية الليبرالية في القرن العشرين، وقد نظر لهذه النسوية الكاتبة الفرنسية

سيمون دي بوفوار، ودعت إلى المشاركة بين الرجل والمرأة على أساس إنساني، ودعت هذه النسوية إلى منح المرأة حق الإجهاض، وحق الحصول على دور حضانة للأطفال أثناء العمل، ودعت هذه النسوية إلى أن تحصل المرأة على تمثيل أكبر في الدولة والسوق والجامعة.

المرحلة الثالثة: النسوية الراديكالية الاشتراكية:

تأسست في ثمانينيات القرن الماضي، ودعت هذه النسوية إلى إلغاء أي دور اجتماعي للمرأة وآخر للرجل، أي بمعنى إلغاء دور المرأة كأم وزوجة وعائلة.

واعتمدت هذه النسوية في التنظير لمواقفها على كتاب «أصل العائلة» لإنجلز الذي ألفه عام ١٨٤٤، ودعا في هذا الكتاب إلى نبذ فكرة العائلة، ودعا إلى اشتراكية الجنس والأطفال، أي بمعنى أن تكون كل النساء لكل الرجال والأطفال الذين يولدون يذهبون للمحاضن الحكومية الجماعية.

المرحلة الرابعة: نسوية الإلهيات:

يرفض اللاهوت النسوي محورية الرجل في الأديان، ويستبدل عبارة الإله والإيمان به بعبادة الآلهة المؤنثة، ومن الممكن استبدال التعبير عن الله من صيغة المذكر إلى صيغة ذكورية/ أنثوية من قبل «أمنا وأبانا الذي في السماء».

يرفض اللاهوت النسوي فكرة التكامل بين الرجل والمرأة في العائلة، ويتقبل فكرة العائلة المثلية مع أولاد أو من دون أولاد.

ترفض النسوية في مراحلها الأخيرة ربط الدور الاجتماعي بالذكورة والأنوثة، كما انتقدت النسوية كل من يؤمن بوجود أخلاق خاصة للرجال وأخرى للنساء، كما طرحت النسوية أن المرأة لا يمكن أن تؤسس العلاقة مع الرجل دون أن تقع تحت سلطته، لذلك فإن المثلية السحاقية هي الحل.

المبحث الثاني
النظرية الجنسية عند فرويد

ولد سيغموند شلومو فرويد (٦ مايو ١٨٥٦، وتوفي ٢٣ سبتمبر ١٩٣٩) لأسرة يهودية، وهو أحد العلماء الذين أسسوا علم النفس، وأسسوا عيادات المعالجة النفسية عن طريق «علم النفس التحليلي».

لقد اعتبر فرويد أن الجنس هو أكبر طاقة تحرك الإنسان، وسماه (ليبيدو)، وجعل الجنس أصل علاقة الولد بأمه، والبنت بأبيها، ومن هنا نشأت «عقدة أوديب» وعقدة «ألكترا».

وقد أصل لإباحة الزنا فاعتبر أن الطاقة الجنسية يجب أن تصرف عن طريق العلاقة بالأنثى، وإلا فإنه سيكون هناك كبت، وسيورث الكبت «عقدًا نفسية» للإنسان، لكن خير من رد عليه ووضح خطأ نظريته هو محمد قطب رحمه الله في أكثر من كتاب أبرزها «الإنسان بين المادية والإسلام»، فاعتبر محمد قطب أن امتناع الشخص عن الوقوع في الزنا، والانتظار من أجل أن يصرف طاقته الجنسية عن طريق الزواج لا يسمى «كبتًا» بل يسمى «ضبطًا»، وهو لا يؤدي بالضرورة إلى «العقد»، لأن العقد النفسية لا تتولد من امتناع الإنسان عن الزنا، بل تتولد من القول أن هذا الأمر وهو شهوة النساء لا يحق له التفكير به مثل ما قالت المسيحية، فهي اعتبرت أن اشتهاء المرأة حرام، وأن المسيحي يقع في الإثم عندما يفعل ذلك، في حين أن الإسلام قد اعترف بهذه الشهوة، واعترف بضرورة الاستجابة لها، ولكنه حدد ذلك عن طريق الزواج، وحرم ما سوى ذلك، وقول المسيحية هو الذي يسمى «كبتًا»، ويؤدي إلى «العقد النفسية» في حين أن قول الإسلام يسمى «ضبطًا» ولا يؤدي إلى عقد.

واعتبر فرويد أن الفن في كل صورةٍ سواء أكانت رسمًا أم شعرًا أم قصة، إنما هو تصعيد للكبت الجنسي الذي يعانيه الفرد.

كما اعتبر الأحلام تعبيرًا عن الكبت الجنسي الذي يعانيه الفرد، وهي طريقة لتصريف الطاقة الجنسية، لكن محمد قطب رفض كل هذه التفسيرات، واعتبر أن الأحلام حسب حديث الإسلام عنها ثلاثة مستويات:

الأول: أضغاث أحلام، وهي الأحلام التي تأتي نتيجة اضطرابات جسمية.

الثاني: حديث نفس، وهي الأحلام التي تأتي نتيجة تطلعات وأحلام الشخص في الوصول إلى أية أمان معينة.

الثالث: إلهام من الله، وهو ما حدث مع يوسف عليه السلام عندما رأى في المنام أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر رآهم له ساجدين، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤ ـ ٥]، ثم تحققت الرؤيا فقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

***

المبحث الثالث

لوائح حقوق الإنسان

اتسمت الحضارة الغربية بأنها أصدرت عدة لوائح لحقوق الإنسان، وبدأت هذه اللوائح منذ الثورة الفرنسية، ثم صدر عام ١٩٤٨ آخر لائحة عن حقوق الإنسان عن هيئة الأمم المتحدة التي تشكلت بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تضمنت عشرات المواد، وهذه اللائحة جاءت بعد حربين عالميتين، قتل في الثانية منهما ما يقرب من خمسين مليون قتيل، وجرى تدمير كامل أوروبا تقريبًا، وبعد إلقاء قنبلتين ذريتين دمرتا مدينتين كاملتين في اليابان هما: هيروشيما وناجازاكي، وقتلتا مئات الآلاف كما أصابتا المدنيين بأضرار نتيجة الإشعاعات الذرية التي ستستمر لعشرات السنيين في قادم الأيام.

من المؤكد أن مضمون مواد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي صدر عام ١٩٤٨ كان مضمونًا رائعًا وجميلًا وجذابًا، لكن الأهم في مثل هذه الإعلانات هو التطبيق، فكيف كان التطبيق لهذا الإعلان الأخير؟

لقد كان هناك تباين هائل بين الأقوال والأفعال، فالأقوال التي صدرت في ميثاق حقوق الإنسان أقوال رائعة وجميلة، لكن الأفعال التي قام بها مجلس الأمن والأمم المتحدة وجمعيتها العامة ومؤسسات الأمم المتحدة أفعال في منتهى السوء، فلو أخذنا عالمنا العربي كنموذج على ذلك فماذا سنرى؟

سنأخذ ثلاثة أمثلة على مدى تباين الأقوال والأفعال في حقوق الإنسان في ثلاثة قضايا من العالم العربي، وسنأخذ مثالين من أوروبا وأفريقيا، أما أمثلة العالم العربي فهي: قضية فلسطين عام ١٩٤٨، والعراق عام ٢٠٠٣، وسورية عام ٢٠١١.

لقد تم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في ١٠ كانون الأول ١٩٤٨، أي جاء هذا الإعلان موافقًا لبدء قيام الدولة الصهيونية في فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨، فكيف تصرفت

الأمم المتحدة ومجلس الأمن نحو حقوق الإنسان، وهما الراعيان للإعلان العالمي لحقوق الإنسان في فلسطين عام ١٩٤٨؟

من الواضح أن إسرائيل قامت عام ١٩٤٨ نتيجة اقتلاع اليهود الصهاينة الذين جاؤوا من مختلف أصقاع الأرض، لأهل فلسطين من أراضيهم وأملاكهم ومزارعهم وبيوتهم، وإحلال هؤلاء اليهود الصهاينة المغتصبين لتلك الأرض مكانهم، فماذا فعل مجلس الأمن؟

لقد صدرت مئات القرارات من مجلس الأمن تأمر إسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة، ومع ذلك فإن إسرائيل لم تنفذ قرارًا واحدًا من تلك القرارات.

لو أخذنا العراق عام ٢٠٠٣ من جهة أخرى، فقد وقع هجوم دولي من عشرات الدول بمباركة مجلس الأمن، وكان مبرر الهجوم هو اتهام العراق بحيازة أسلحة الدمار الشامل، ثم ثبت أن هذه التهمة باطلة لا أصل لها، فبعد أن احتل العراق فتش تفتيشًا دقيقًا ولم يعثر على أية أسلحة تدمير شاملة، وثبت بطلان هذا الاتهام، وتلفيق التهم في مجلس الأمن عن طريق «كولن بأول» وزير خارجية أمريكا حينه، لكن الحصيلة كانت مقتل مليون شخص، وتدمير العراق تدميرًا كاملًا، وإعادته إلى ما قبل التاريخ.

لو أخذنا سوريا كمثال آخر على تباين الأقوال والأفعال، لوجدنا أن سورية ثارت ضد بشار الأسد عام ٢٠١١، وكاد أن يسقط عام ٢٠١٢، ثم استعمل البراميل المتفجرة والكيماوي في قتل الشعب السوري، وقتل بالكيماوي عام ٢٠١٥ ما يقرب من ٥٠ ألف شخص، واتخذ الرئيس الأمريكي أوباما قرارًا بمعاقبة الأسد، لكنه تراجع بعد مفاوضات قام بها مع الروس، وكانت النتيجة بقاء الأسد بعد تدمير الأسلحة الكيماوية لضمان أمن إسرائيل، والآن قدمت سورية مليون شهيد، وأضعافهم من الجرحى والمعاقين، وتم تهجير ١٠ ملايين على الأقل، فأين حقوق الإنسان من أفعال بشار؟

ومما يوضح التباين بين أقوال وأفعال أوروبا وأمريكا في مجال حقوق الإنسان أمران هما: العنصرية، والنازية.

أمريكا تميز بين الأبيض والأسود، ولم تلغ ذلك رسميًا إلا في الستينات من القرن الماضي، ومع ذلك فهي طافحة بأعمال التمييز، وما زال العرق الأبيض الأنجلوسكسوني ذو العيون الزرقاء والمرتبط بالمذهب البروتستانتي ـ والذين يسمون اختصارًا «White Anglo - Saxon Protestants (WASPs)» ـ وهي مجموع أحرف الكلمات السابقة، هم الذين يتحكمون في أمريكا، فلم يأت حاكم لأمريكا من خارج (WASPs) خلال القرنين والنصف السابقين سوى ثلاثة حتى الآن: اثنان كاثوليك وهما: جون كنيدي وجو بايدن، فهما كاثوليكيان، وواحد ملون هو أوباما.

آفاق حول النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية:

بينا في بداية الفصل أن الطبقة البرجوازية هي عماد النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية، وقد وضحنا في المباحث الثلاثة التي كتبناها حول «النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية» حقيقة هذا النظام فتبين أنها تؤكد مبدأ أساسيًا قامت عليه الحضارة الغربية وهو «تأليه الإنسان والشهوات».

فبحثا «النسوية ونظرية الجنس عند فرويد» يؤكدان مبدأ تأليه شهوة النساء وينظِّران لها، أما البحث الثالث «لوائح حقوق الإنسان» فيؤكد أن كل دعاوى حقوق الإنسان هي شعارات فارغة تُرمى جانبًا عندما تصطدم بمصالح «الغرب» و«الرأسمالية المتوحشة».

***

القسم الثاني

تأثيرات الحضارة الغربية على العالم العربي

مدخل إلى القسم الثاني

استعرضنا فيما سبق نشأة الحضارة الغربية والمكونات التي قامت عليها، ثم وضحنا المبادئ التي سيرتها، ثم انتقلنا إلى الأنظمة التي حكمتها فشرحنا النظام السياسي، ثم النظام الاقتصادي، ثم النظام الاجتماعي.

والآن ننتقل إلى توضيح تأثير الحضارة الغربية علينا واجتهاد الغرب في فرض نموذجه الحضاري، وسعيه إلى تغريبنا، والمقاومة التي أبدتها أمتنا، وقد بدأ تأثير الحضارة الغربية علينا منذ القرن التاسع عشر، وقد أخذ هذا التغريب ثلاث صور، وهي:

الصورة الأولى: محاولة الغرب أن يفرض نموذج الحضارة الغربية على العالم العربي.

الصورة الثانية: تطويع النص القرآني لصالح الحضارة الغربية من خلال القراءات الحداثية.

الصورة الثالثة: إصدار أحكام خاطئة على تاريخنا وحضارتنا مثل: أن تاريخنا تاريخ استبداد، وبأن حضارتنا مرت بعصر انحطاط شمل العصر العباسي المتأخر، والعصر المملوكي، والعصر العثماني.

ونحن سنستعرض في الصفحات التالية الصور الثلاثة التي استخدمها الغرب من أجل أن يغرب أمتنا.

***

الفصل السادس
الصورة الأولى من التغريب
فرض نموذج الحضارة الغربية على العالم العربي

مدخل إلى الصورة الأولى من التغريب

لقد اتصفت الحضارة الغربية بأنها حضارة عدوانية وحشية توسعية، حريصة على فرض نموذجها الحضاري، وهذا ما قامت به نحونا، فبعد أن تبلورت صورتها إثر الثورة الفرنسية، غزا نابليون مصر عام ١٧٩٨، وحاول أن يتمدد شرقًا باتجاه فلسطين لكنه عجز عن دخول عكا، مما جعله يتراجع، ثم عاد إلى فرنسا على إثر تطورات داخلية مرت بها الثورة، وترك بعده في مصر جزءًا من الحملة بقيادة الجنرال جان بابتيست كليبر[1]، ثم اضطرت الحملة الفرنسية إلى مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا عام ١٨٠٢ إثر مقاومة الشعب المصري لها، وفشلها في ترسيخ وجودها في مصر.

لقد استمرت الحضارة الغربية في التدخل في شؤون العالم العربي، وحاولت في فرض نموذجها الغربي على كل دولة، واستعملت في ذلك مختلف الأساليب، ومنها

---

(١) (١٧٥٣ ـ ١٨٠٠) هو أحد جنرالات فرنسا أثناء حروب الثورة الفرنسية. اشترك في حملة نابليون بونابرت على مصر. بدأ حياته العسكرية في خدمة آل هابسبورغ، ولكن أصوله الشعبية حالت دون ترقّيه في الخدمة. فتطوع في الجيش الفرنسي سنة ١٧٩١ ليترقى سريعًا في الرتب العسكرية إلى أن وصل إلى رتبة جنرال. خدم كليبر في راينلاند أثناء حرب التحالف الأول، كما شارك في قمع تمرد الملكيين في إقليم الفونديه. قبل أن يتقاعد لفترة وجيزة بعد معاهدة كامبو فورميو، عاد إلى العسكرية ليرافق نابليون في حملته على مصر بين عامي ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩. وعندما غادر نابليون مصر عائدًا إلى باريس، عيّن كليبر قائدًا للحملة خلفًا له.

أساليب الاستعمار العسكري، وأساليب التبشير المسيحي، وتسخير علم الاستشراق للاستفادة منه في سبيل تحقيق ذلك، واحتلت معظم الدول العربية خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فاحتلت إنجلترا عدن عام ١٨٣٠، واحتلت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠، ثم تونس ١٨٨٠ ثم المغرب عام ١٩١٢، واحتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١٠ واحتلت إنكلترا مصر عام ١٨٨٢، ثم تقاسمت إنكلترا وفرنسا بلاد الشام بعد الحرب العالمية الأولى بعد توقيع اتفاقية سايكس وبيكو بين الدولتين عام ١٩١٦، فاحتلت إنكلترا فلسطين والأردن عام ١٩١٧، واحتلت فرنسا سورية ولبنان عام ١٩٢٠، ثم احتلت إنكلترا العراق ١٩٢٠، أما منطقة الخليج فكان قد تم احتلالها من قبل الإنجليز في القرن التاسع عشر.

حاول الغرب فرض مشروعه الحضاري على بلادنا العربية خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين، حاول ذلك من خلال التأثير على شعوبنا في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والتربوية والاجتماعية والسلوكية إلخ...

وقد مرت محاولات الغرب في التأثير على العالم العربي من أجل فرض نموذجه الحضاري وترسيخه بخمس مراحل، هي:

١ ـ المرحلة الأولى: القرن التاسع عشر. (التنظيمات والتحديثات).

٢ ـ المرحلة الثانية: بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ـ ١٩٥٢، «المشروع القومي العربي ـ الفرعوني».

٣ ـ المرحلة الثالثة: بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠، المشروع الاشتراكي الماركسي.

٤ ـ المرحلة الرابعة: الصحوة الإسلامية ١٩٧٠ ـ ٢٠١١.

٥ ـ المرحلة الخامسة: الربيع العربي ٢٠١١ ـ ٢٠٢٢.

المرحلة الأولى: تأثير الحضارة الغربية علينا في القرن التاسع عشر (التنظيمات في إستانبول والتحديثات في مصر)

اجتهدت دول أوروبا بعد قيام حضارتها، واستواء نهضتها بعد الثورة الفرنسية، أن تغرب أمتنا وتؤثر على عالمنا العربي، ونحن سنرصد هذا التأثير الحضاري، والضغوط الدولية التي قامت بها أوروبا من أجل فرض نموذجها الحضاري، وقيمها ومثلها، ونموذج اقتصادها وسياستها في مكانين، هما:

أولًا: الخلافة العثمانية.

ثانيًا: مصر في عهد محمد علي باشا.

أولًا: الخلافة العثمانية وعاصمتها إستانبول:

توجهت الضغوط من قبل أوروبا على الخلافة العثمانية في القرن التاسع عشر، وتنوعت هذه الضغوط، فكانت سياسية وثقافية واقتصادية واجتماعية وتربوية إلخ...، وقد استجابت الخلافة العثمانية لهذه الضغوط، وكانت استجابتها على صورة تحديثات، ونحن سنرصد هذه التحديثات في المجالات التالية:

١ ـ تحديثات سياسية:

تركزت الضغوط السياسية على الخلافة العثمانية بإنشاء برلمان وإجراء انتخابات، وإقرار حقوق الإنسان للأفراد، وإيجاد دستور يفصل السلطات عن بعضها، ويرسم للأقليات حقوقها، وقد استجابت الخلافة العثمانية لكل هذه الضغوط، فأصدرت الخلافة عدة مراسيم كان أبرزها:

أ ـ خط كلخانة عام ١٨٣٩:

وكان المقصود من هذا الخط هو إقرار الخلافة العثمانية بحقوق الإنسان، والمساواة بين جميع المواطنين في الخلافة العثمانية.

ب ـ الخط الهمايوني عام ١٨٥٦:

وهو الخط الذي رسم التحولات الاقتصادية للخلافة العثمانية، وحرر الأسعار وربط اقتصاد الخلافة بالسوق العالمية، وأقر هذا الخط بحقوق الأقليات، وبأن لها محاكمها الخاصة.

ج ـ الدستور ١٨٧٦:

تم إقرار الدستور عام ١٨٧٦، وقد أقر هذا الدستور إجراء الانتخابات، وإيجاد مجلس شورى لكل السلطنة تصدر القوانين الذي تنظم شورى السلطنة، ووزع الصلاحيات بين ثلاث سلطات: التشريعية والقضائية والتنفيذية.

٢ ـ تحديثات عسكرية:

لقد كان الجيش العثماني من أقوى الجيوش في العالم عند إنشاء السلطنة في تركيا، وهو الذي استطاع فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ بقيادة محمد الفاتح، واستطاع التغلب على الجيوش الأوروبية، وتوسيع رقعة الخلافة حتى بلغت فيينا عام ١٥٣٢ بقيادة سليمان القانوني، وكانت ترتيباته العسكرية مبنية على الخبرات العسكرية التي كانت قائمة في القرون الوسطى من كل النواحي. وكان يسمى «الجيش الانكشاري»، وبعد أن نهضت أوروبا صناعيًا، وبدأ عصر البخار، ثم عصر الكهرباء، تقدمت الفنون العسكرية في أوروبا على مستوى التصنيع والتدريب وفنون القتال، وبهذا سبقت أوروبا الخلافة العثمانية، لذلك اضطرت الخلافة العثمانية إلى تحديث جيوشها، فاستفادت من الخبرات الأوروبية في هذا المجال، لذلك أقدم السلطان محمود عام ١٨٢٦ على حل الجيش الانكشاري واستبداله بجيش حديث يستخدم الأسلحة الحديثة والفنون القتالية الحديثة، واستفاد من فرنسا في هذا المجال، وقد سبب هذا التغيير اضطرابات في الجيش لكن السلطان محمود استطاع التغلب، وكان القصد من هذه التغييرات تحديث القدرات القتالية للجيش، ليصبح في مستوى الجيوش الأوروبية التي يصارعها.

٣ ـ تحديثات تعليمية:

كان التعليم الموجود في الخلافة قائمًا على التعليم التقليدي والذي يشمل العلوم الدينية والعلوم الدنيوية، لكن الخلافة العثمانية نتيجة احتكاكها بأوروبا، ووجود تعليم مدني لا ديني فيها، وكان هذا التعليم أساسًا لكل التخصصات الأخرى: كالهندسة والطب والتصنيع والزراعة إلخ... قلدت أوروبا في ذلك، وأنشأت مدارس مدنية، على غرار التعليم المدني الفرنسي، واقتصر التعليم في هذه المدارس على تعليم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والتشريح إلخ...، وأبعدوا التعليم الديني عن هذه المدارس، وكان القصد من هذا التعليم هو إيجاد طلاب يتخرجون مهندسين وأطباء وتخريج موظفين يقومون بالخدمات الكتابية والإدارية من أجل تسيير أمور الدولة وضبط حركتها.

٤ ـ تحديثات اقتصادية:

ضغطت الدول الأوروبية على الخلافة العثمانية من أجل فتح أسواقها للمنتجات الأوروبية، ومن أجل دمج سوقها في الأسواق العالمية، وقد رضخت الخلافة العثمانية لذلك، وفعلت ذلك بدءًا من عام ١٨٥٦، وهو العام الذي أصدرت فيه الخلافة العثمانية الخط الهمايوني، وهذا ما أثر على اقتصادها وجعل وضعها الاقتصادي يتراجع بسبب منافسة البضائع الأوروبية للبضائع المحلية، وأدى ذلك إلى إغلاق عدد من المصانع، وكساد عدد من الحرف.

لقد سمى المؤرخون الخطوات السابقة «بالتنظيمات»، والسؤال الآن: ما الدافع وراء هذه التنظيمات؟ هل كان الدافع هو نقل القيم والمبادئ الغربية التي أفرزتها الثورة الفرنسية؟ أم كان الدافع هو تغيير بعض الهياكل والمؤسسات والوسائل والأساليب القديمة التي كانت تتبعها، واستبدالها بجديدة أفرزتها أوروبا من أجل تحسين الإنتاج والمردود؟

نعم، لقد كان الدافع هو اقتلاع الهياكل والوسائل والمؤسسات والأساليب القديمة

وإحلال أخرى حديثة منقولة من أوروبا عامّة وفرنسا خاصّة، ومما يدل على ذلك ويؤكده أنه جاء في مقدمة خط كلخانة الذي صدر عام ١٨٣٩ الكلام التالي: «لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العليّة من بدء ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها».

ثانيًا: مصر في عهد محمد علي باشا[1]:

استلم محمد علي باشا حكم مصر في عام ١٨٠٥، وعين واليًا عليها، واتجه محمد علي باشا إلى تحديث مصر، وإيجاد تغيير فيها، لذلك عمل على تحديث الجيش والتعليم والتجارة والإدارة والطرق والبريد إلخ...، ونحن سنرصد هذه التحديثات وسننقل وقائعها:

أ ـ تحديثات عسكرية:

أرسل محمد علي باشا بعثة عسكرية إلى فرنسا لتحديث الجيش ولتعلم الفنون العسكرية المستخدمة في أوروبا، على أن تعود إلى مصر من أجل تحديث الجيش المصري، ورافق تلك الحملة مرشد ديني هو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣).

وبالفعل حدث محمد علي باشا الجيش، وأنشأ جيشًا على الطراز الأوروبي، وسلم قيادته إلى القائد العسكري «يعقوب الفرنساوي»، واستعمل محمد علي باشا هذا الجيش من أجل توسيع سيطرته في السودان وبلاد الشام والجزيرة العربية، وقضى هذا الجيش على الحركة الوهابية عام ١٨١٨، ودمر الدرعية مركز تلك الحركة، واقتاد عددًا من أبناء آل سعود كرهائن، وأرسلهم إلى مقر الخلافة العثمانية في إستانبول، وكان هذا القضاء على

(١) محمد علي باشا: ألباني الأصل أحد جنود الدولة العثمانية، أرسلته الخلافة العثمانية إلى مصر على رأس مجموعة من العسكريين إلى مصر، بعد أن احتل نابليون مصر عام ١٧٩٩، وبعد أن خرج الفرنسيون من مصر عام ١٨٠٣، لعب محمد علي باشا دورًا على التناقضات في مصر، واستمال المصريين، وطلبوا من الخليفة ترقيته واليًا على مصر...

الحركة الوهابية بناء على طلب من الخلافة العثمانية، وخاض الأسطول البحري المصري إلى جانب أسطول الخلافة معركة نافارين البحرية عام ١٨٢٧ في مواجهة الأساطيل الفرنسية والإنجليزية والروسية، وخسرها العثمانيون وتدمر الأسطول المصري في تلك المعركة، كما أرسل محمد علي باشا ابنه إبراهيم باشا واحتل بلاد الشام عام ١٨٣١ بحجة أن والي عكا يحمي الهاربين من الخدمة في الجيش المصري، واحتل جميع بلاد الشام وتقدم إلى أن وصل جبال طوروس، وهدد الخلافة العثمانية، لكن الدول الغربية وعلى رأسها إنجلترا، اضطرته إلى التراجع بعد أن خذلته فرنسا وأخذ عهدًا من الخلافة العثمانية أن تكون مصر له ولأولاده.

ب ـ تحديثات تعليمية:

وأنشأ محمد علي تعليمًا جديدًا منفصلًا عن التعليم الشرعي الذي كان مرتبطًا بالمساجد، فأنشأ مدارس ذات منهج فرنسي تدرس العلوم الدنيوية بالدرجة الأولى، وتخرج متعلمين من أجل أن يستخدمهم محمد علي باشا في جهازه الإداري الذي أنشأه لإدارة حكم مصر، واستولى على جانب من أموال الأوقاف وأراضيها الزراعية، وزعم بأنه سيمول المساجد والمدارس الشرعية والطلاب الشرعيين واحتياجات الأوقاف من أموال الدولة مباشرة.

ج ـ تحديثات زراعية:

اجتهد محمد علي باشا بتوسيع الأرض المزروعة في مصر، فأنشأ القناطر الخيرية على النيل في منطقة الدلتا، وشق الترع التي تزيد من توسيع مياه النيل، من أجل الحصول على مواسم في الصيف والشتاء، وليستفاد من مياه الفيضان، ولا تذهب مياهه سدى في البحر، واعتبر بعض المهندسين في عصر محمد علي باشا أن مشروع القناطر الخيرية يعتبر أكبر مشروع للري في العالم في ذلك الوقت. وكذلك استحدث محمد علي باشا زراعة القطن، واستفاد منها في تشغيل مصانع النسيج التي بناها، والتي أنتجت الأقمشة التي تحتاجها مصر.

د ـ تحديثات في المواصلات:

أجرى محمد علي باشا تحديثات في الواصلات فأنشأ سكة حديد تمتد من الإسكندرية في الشمال إلى أسوان في الجنوب، كما أنشا بريدًا يشمل كل أنحاء مصر، وأنشأ ابنه إسماعيل قناة السويس عام ١٨٦٩، وهي التي وصلت البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر.

هـ ـ تحديثات سياسية:

أنشأ أولاد محمد علي باشا في مرحلة متأخرة مجلسًا لشورى القوانين، وجريدة لنشر أخبار الدولة تحت اسم «الوقائع المصرية» عام ١٨٢٨، وأشرف محمد عبده على تحريرها.

السؤال الآن لماذا أجرى محمد علي باشا كل هذه التحديثات في مصر؟ الجواب على ذلك: أنه أراد أن يبني دولة قوية يستطيع من خلالها أن يوسع سيطرته على بلاد أخرى، وهذا ما فعله، فهو بعد أن بنى جيشا قويًا ودربه أحسن تدريب وزوده بالأسلحة المختلفة، بعد أن حسّن الاقتصاد ووسع الأرض المزروعة ومدّ السكك الحديدية من الشمال إلى الجنوب توجه إلى التوسع في الجنوب والشرق فغزا السودان وبلاد الشام، وقد ساعدته على ذلك الدول الأوروبية وأبرزها فرنسا من أجل إضعاف الدولة العثمانية، وكانت أوروبا قد قامت بذلك مع حكام آخرين مثل: الجزار في عكا وأبو الذهب في مصر.

وهناك سؤال آخر يجدر أن نطرحه هو: بماذا نقوم هذه التحديثات؟ وأين نضعها في إطار النهضة والعمل الحضاري؟ من الواضح أن كل التحديثات التي قام بها محمد علي وأولاده يمكن أن نعتبرها نقلًا للآليات التي اخترعتها الحضارة الغربية وللوسائل التي ابتكرتها، كالمصانع والأسلحة وتحسين الزرع ومدّ السكك، وإنشاء البريد إلخ...، ولم يتعامل محمد علي باشا مع قيم الحضارة الغربية ومبادئها وأفكارها وأخلاقها الخاصة مثل: العداء للدين، إنكار الغيوب والحرية المتفلتة، والمادية، وتأليه الشهوات إلخ...، ولم يحاول العبث في النص القرآني والحديث، ولم يقترب من أي قضية دينية لا بالإثبات

ولا بالنفي ولا بالتعديل، لأن جهده كان منصبًا على الأمور العملية التي تساعده على تقوية بلده، لذلك لا يمكن أن نسمي ما قام به محمد علي باشا نهضة؛ لأن النهضة تحتاج الى أسس فكرية وشرعية وعلمية من أجل تغيير الواقع في جانبه الاجتماعي والتربوي والسياسي والنفسي والعقلي والفني والخلقي إلخ... كما حدث في أوروبا بعد الثورة الفرنسية، وكما حدث في اليابان بعد التغيرات التي أحدثها الإمبراطور ميجي في بنية المجتمع الياباني الفكرية والاجتماعية والثقافية باتجاه القيم الغربية، وبعد ذلك أخذ بالوسائل والآليات.

الاحتلال الإنكليزي لمصر عام ١٨٨٢

تم الاحتلال الإنكليزي لمصر عام ١٨٨٢ بحجة الديون المتراكمة عليها، وبحجة استيفاء هذه الديون، وهنا حكمت مصر سلطتان:

١ ـ سلطة الخديوي التابع للخلافة العثمانية.

٢ ـ سلطة اللورد كرومر التابع لإنكلترا.

وتصارعت هاتان السلطتان، وكان كل منهما يحاول أن يفرض سلطته ومبادئه وقيمه وأفكاره وأخلاقه، واصطرعت السلطتان، وحدث التدافع بينهما، وتواصل اللورد كرومر أثناء قيادته للسلطة الإنجليزية في مصر مع محمد عبده، واستشاره في كثير من الأمور المتعلقة بمصر، وقدم له محمد عبده بعض اللوائح لإصلاح التعليم والأزهر والقضاء إلخ...

ونحن سنرصد تأثير الحضارة الغربية في مصر من خلال شخصيتين لعبتا أكبر دور في نقل التأثير الحضاري الغربي هما:

أ ـ رفاعة رافع الطهطاوي.

ب ـ محمد عبده.

أ ـ رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣):

رفاعة رافع الطهطاوي هو الشيخ الأزهري الذي رافق البعثة العسكرية التي

ذهبت إلى فرنسا من أجل تعلم الفنون العسكرية من أجل إرشادها وتوجيهها.

وقد ألف الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي كتابًا دون فيه قصة هذه الرحلة بعنوان «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، وقد أشار الطهطاوي في كتابه هذا إلى الحياة في باريس وأبدى إعجابه بها، وأبدى بعض الملاحظات، وألف كتابًا آخر في التربية سماه «المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين»، كما يمكن أن نعتبر رفاعة رافع الطهطاوي من أوائل اللذين تطرقوا إلى موضوع «الدستور» وإلى فكرة «الوطن» و«المواطنة» في كتاباته، كما أنشأ دارًا للترجمة في القاهرة، اهتمت بترجمة الكتب الأجنبية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية، وكانت خطوة مهمة في تعريف الجمهور المصري بالحضارة الغربية.

من الواضح أن رفاعة رافع الطهطاوي بقي دوره في نقل صورة عن حياة المجتمع الفرنسي الذي رآه، وبيّن إعجابه ببعض التصرفات على مستوى الأفراد والحكم، وبيّن انتقاده لبعض التصرفات الأخرى ومخالفتها لقواعد الشرع والدين.

ب. محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥):

عاصر محمد عبده كلًّا من أسرة محمد علي باشا والإنجليز في حكم مصر والسيطرة عليها، وتوثقت علاقته مع الإنجليز بعد عودته من المنفى، وبالذات مع اللورد كرومر، وتعاون محمد عبده مع اللورد كرومر في إجراء عدة إصلاحات في مجال القضاء، والتعليم في الأزهر، والمحاكم الشرعية، والتعليم العام، وإنشاء معهد للقضاء.

ويمكن أن نعتبر محمد عبده أكبر شخصية فكرية أثرت في المسار الفكري والشرعي لمصر والعالم العربي في القرن التاسع عشر واستمرت إلى القرن العشرين، لأنه احتل منصب مفتي مصر عام ١٨٩٨، وهو موقع ديني مهم، لأنه يعطي صاحبه صلاحيات للتأثير في مسار الأوضاع في مصر والعالم العربي، وقد جاء الدور الخطير لمحمد عبده في أنه اجتهد أن يؤول بعض حقائق الإسلام، ومن أبرزها الغيوب، فأوّل سجود الملائكة

لآدم بتسخير قوى الأرض للإنسان، وامتناع إبليس عن السجود بقوه إغراء الشر، وأوّل معصية آدم بأنها تشير إلى أطوار البشرية من الطفولة إلى تمييز ناقص، إلى رشد واستواء، وأوّل محمد عبده خلق عيسى عليه السلام بأنه جاء من أحد وجهين، الأول: اعتقاد قوي استولى على قلب مريم عليها السلام فأحدث الحمل بها، الثاني: روح لطيف أرسله الله إلى مريم فأحدث التلقيح بها، وأوّل الجن بالميكروب، وأوّل النفاثات في العقد بالنمّامين المقطّعين لروابط الألفة، المُحرِقين لها بما يُلقون عليها من ضرام نمائمهم. كما أوّل الطير الأبابيل بجنس البعوض أو الذباب، وحجارة السجيل بأنها طين يابس مسموم يحمل جراثيم مرض الجدري أو الحصبة.

والأهم من ذلك أن الغرب راهن على مدرسة محمد عبده في أن تحكم مصر، فذكر اللورد كرومر حاكم مصر في كتاب له بعنوان «مصر الحديثة» فقال: «إن محمد عبده كان مؤسسًا لمدرسة فكرية حديثة قريبة الشبه من تلك التي أسسها السيد أحمد خان مؤسس جامعة عليكرة الإسلامية[١]». وأكد أنه عون المصلح الأوروبي فقال: «إن أهميته السياسية (أي محمد عبده) ترجع إلى أنه يقوم بتقريب الهوة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين، وأنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يُقدَّم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع؛ فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربي»[٢].

وكذلك أثنى المستشرق جب على محمد عبده ومدرسته في كتاب «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» وبين أثره ودوره ومنهجه في تطويع الدين الإسلامي لصالح الحضارة

---

(١) جامعة عليكرة الإسلامية هي أول جامعة إسلامية أسّست في الهند عام ١٨٧٥م على يد السيد أحمد خان. تشمل الدراسة فيها الآداب، والعلوم والهندسة والطبّ. تضمّ كليات الطبّ، العلوم والصناعات، الهندسة والتكنولوجيا، وفيها كلية النساء. في مكتبتها نيّف و٤,٠٠٠ مخطوط باللغات العربية والفارسية والأردية والبنغالية والإنجليزية.

(٢) اللورد كرومر، كتاب «مصر الحديثة» (ص ١٧٩ ـ ١٨٠).

الغربية، وكذلك وافق عدد من المستشرقين المستشرق جب على رأيه ومنهم المستشرق الألماني كَمْبِفْمَيَر[١]، وكذلك الأب المبشر بانيرث.

ويمكن أن نلخص تأثيرات الحضارة الغربية على مصر في القرن التاسع عشر بأنها جاءت من طريقين، هما: محمد علي باشا والإنجليز، أما محمد علي باشا فأجرى تحديثًا في مصر في مجال الجيش والزراعة والمياه والمدارس والسكك الحديدية والطرقات والبريد، ولم يقترب من الأمور الشرعية والدينية، لكن الإنجليز بعد استعمارهم لمصر عام ١٨٨٢، حاولوا نقل التحديثات الحضارية الغربية، وحاولوا أن يروجوا لقيمهم ومبادئهم وأفكارهم وثقافتهم، ووجدوا ضالتهم في محمد عبده الذي حاول أن يطوع بعض جوانب الإسلام لصالح الحضارة الغربية، وبخاصة في مجال تأويل الغيوب التي وردت في القرآن والسنة، وتزيين التعامل مع بعض جوانب الحضارة[٢].

***

(١) هو مستشرق ألماني عني باللهجات العربية المحلية في البلاد العربية. من آثاره «معرض الأفكار الشرقية»، و«شعراء العرب في العصر الحاضر»، وإسهامات في مجلة ZDMG وغيرها. توفي ببرلين عن نحو ٨٠ عامًا.

(٢) انظر تفصيلاً لموقف محمد عبده من الحضارة الغربية في كتابي «الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة وتقويم» الذي نشرته عام ١٩٦٩ الصفحات (١٥ ـ ٩٢).

المرحلة الثانية: المشروع القومي العربي ـ الفرعوني للتغريب بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ـ ١٩٥٢

بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانتهت عام ١٩١٨، وحدث زلزال كبير إثر انتهائها وهو سقوط الخلافة العثمانية وانتهاء قيادتها للعالمين: العربي والإسلامي، وقيام دول وكيانات جديدة، ووقوع عدد من الدول العربية تحت احتلال الدول الأوروبية، ومنها: العراق وفلسطين والأردن التي احتلتها إنكلترا، وسورية ولبنان التي احتلتها فرنسا.

ومما تجدر الإشارة إليه والتنبيه عليه، أنه قامت عدة ثورات أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، مثل: الثورة العربية الكبرى التي قادها الشريف حسين عام ١٩١٦ والتي أطلق رصاصتها من مكة، وثورة عام ١٩١٩ والتي قادها سعد زغلول، وثورة عام ١٩٢٠ في العراق والتي أصبح الملك فيصل بن الحسين ملكًا على العراق بعدها، وكانت هذه الثورات تدعو إلى النهضة وإلى إنهاء عهد التخلف والاستبداد والتأخر، وتدعو إلى دولة عربية واحدة تمتد من جبال طوروس في الشمال إلى اليمن في الجنوب، وكانت تدعو إلى بناء نهضة علمية وصناعية، وبناء مجتمع متعلم وغني، وكانت هذه الأحلام والشعارات تملأ أذهان وشعوب أبناء المنطقة جميعهم سواء أكانوا في العراق أم في بلاد الشام أم في الجزيرة العربية أم في مصر، هذا هو المناخ العام السائد، وضمن هذا المناخ بدأ تأثير الحضارة الغربية مرحلة جديدة على منطقتنا وبلادنا وشعوبنا.

ما المشروع الذي حملته دول المنطقة وقياداتها إلى شعوبها بعد الحرب العالمية الأولى وفي هذه المرحلة؟ لقد كان هو الفكر القومي بنسختيه: الألمانية أو الفرنسية، أما الفكر القومي الألماني والذي يقول: إن الأمة تقوم على عاملي اللغة والتاريخ، فقد حمله المفكرون القوميون العرب وعلى رأسهم ساطع الحصري رائد القومية العربية، والذي كان في حاشية الملك فيصل عندما توج ملكًا على سورية في عام ١٩١٩، وحينما طرده الفرنسيون من دمشق بعد معركة ميسلون عام ١٩٢٠، ذهب الملك فيصل إلى العراق

وتوج ملكًا في بغداد عام ١٩٢١، وبقي المفكر ساطع الحصري عاملًا مع الملك فيصل الأول، وهو الذي نظر للعراق ورسخ الفكر القومي العربي فيه، وبنى وزارة التربية والتعليم في العراق على أساس قومي عربي، ورسخ العلمانية كذلك في العراق.

أما الفكر القومي الفرنسي فيقول بأن عامل الجغرافيا هو الذي يشكل الأمم، وقد أخذت به مصر، بعد ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول، وبالفعل أثرت الجغرافيا في تكوين مصر التاريخية منذ عهد الفراعنة، وقد عمق الدكتور جمال حمدان هذه الفكرة في كتاب «شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان» في أربعة مجلدات، وبين أثر النيل والطبيعة في تكوين مصر.

لقد اعتمد الفكر القومي المصري الفرعوني كل المفكرين المصريين البارزين والقادة السياسيين كما سنرى ذلك عندما ندرس التغيرات في الهوية والانتماء التي حاول الفكر القومي إحداثها في مصر.

وقد استبعدت كل من النظريتين القوميتين الدين من أن يكون عاملًا في بناء الأمة، بل اعتبرت كلا النظريتين أن الدين عامل هدم وتفريق، لذلك يجب أن لا تقوم الأمة على أساس ديني، وهو ما يناقض وضع الجماهير في العراق وبلاد الشام ومصر والجزيرة العربية، والتي يظهر فيها أن الدين الإسلامي عامل رئيسي في بناء وجودها وكيانها ونفسيتها وعقليتها وقيمها ومبادئها وأحكامها وأفكارها ولباسها وطعامها وشرابها وعاداتها وتقاليدها إلخ... وقد كان القصد من المشروع القومي في المنطقة إيجاد رابطة بديلة عن أخوة الدين الإسلامي وإيجاد أمة بديلة للأمة الإسلامية التي كانت تجمع كل هؤلاء الناس.

ونحن سندرس تأثير المشروع القومي على مصر وسنعتبر هذه الدراسة ممثلة لكل الدول العربية، لأن ما حدث في بقية الدول العربية من تأثيرات «المشروع القومي» قريب الشبه بما حدث في مصر في العموم، وإن اختلفت بعض التفاصيل.

وسنتناول تأثير الحضارة الغربية على مصر في هذه المرحلة ضمن الفقرات التالية:

تغييرات في الانتماء والهوية، تغييرات سياسية وقانونية، تغييرات اقتصادية.

ثم سندرس ردود الفعل الشعبية والعملية والعلمية على هذه التغييرات.

١ ـ تغييرات في الهوية والانتماء:

لو طرحت سؤالًا في القرن التاسع عشر: من نحن؟ وماهي هوية مصر؟ وما الرابطة التي تجمع المصريين؟ ولمن ولاء المصريين؟

لجاء الجواب دون أدنى تلجلج بأننا مسلمون جزء من الأمة الإسلامية، والدين الإسلامي هو الذي يربطنا ببعضنا وأن ولاءنا للإسلام والمسلمين.

لكن لو طرحنا هذا السؤال بعد الحرب العالمية الأولى: من نحن؟ وماهي هوية مصر؟ وما الرابطة التي تجمعنا؟ ولمن ولاؤنا؟

لجاء الجواب: نحن أمة مصرية فرعونية، وهوية مصر فرعونية مصرية ولا علاقة لها بالعرب والإسلام، والرابطة التي تجمع المصريين هي القومية المصرية الفرعونية، وهي الرابطة التي سبقت دخول المسيحية إلى مصر، وسبقت دخول الإسلام كذلك على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وقد دعا إلى تلك الأفكار حـزب الوفد الذي ترأسه سعد زغلول بعد ثورة ١٩١٩، كذلك دعا إلى تلك الأفكار معظم رموز مصر الفكرية وقادتها السياسيون مثل: أحمد لطفي السيد، طه حسين، عباس محمود العقاد، محمد حسين هيكل، سلامة موسى، لويس عوض إلخ...

لكن هذه الدعوة إلى تغيير الانتماء والهوية ليست واقعية وليست سليمة، وليست صحيحة، لأن كل ما في مصر يدل على الانتماء الإسلامي، والهوية الإسلامية، بدءًا من

العادات والتقاليد والأعراف ومرورًا بالأفكار والقيم والمبادئ والأحكام وانتهاء بالأشواق والأذواق والمواجيد.

لذلك لم تلق هذه الدعوة استجابة كبيرة عند الشعب المصري، لذلك عندما ظهر «الإخوان المسلمون» كحركة جماهيرية وطرحوا الانتماء إلى «الإسلام والعروبة» وهما عاملا تكوين «هوية الأمة»، تجاوبت معهم جماهير الشعب المصري، والتفت حولهم، واكتسحوا الشارع المصري، واضطر المفكرون الداعون إلى المصرية والفرعونية أن يحولوا بوصلة كتاباتهم إلى العناوين الإسلامية، فكتب عباس محمود العقاد وطه حسين وغيرهم عشرات الكتب الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية، مع أنهم لم يكتبوا حرفًا واحدًا عن الإسلام بين الحربين، ومن الواضح أن هذا التوجه طرأ استجابة لواقع الشارع المصري الذي ظهرت إسلاميته بشكل صارخ وقوي من أجل الرد على القول بفرعونية الشعب المصري، وقد كان في طليعة المصريين لهذه الدعوى الإخوان المسلمون وجمعية الأنصار السلفية وكثير من علماء الأزهر.

٢ ـ تغييرات سياسية وقانونية:

حل النظام الديمقراطي في مصر بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد ثورة الشعب المصري عام ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول، وأصدرت مصر دستورًا ديمقراطيًا عام ١٩٢٣.

وطلب الدستور إنشاء برلمان، وألزم بإجراء انتخابات، وسمح بإنشاء الأحزاب والنقابات وإصدار الصحف، وبالفعل بعد أن صدر الدستور عام ١٩٢٣، تشكلت الأحزاب، وجرت الانتخابات، وفاز حزب الوفد الذي يرأسه سعد زغلول بالأغلبية، وصدرت عدة صحف في مصر، وتوزعت شخصيات مصر الأدبية والفكرية والسياسية بين هذه الأحزاب والتيارات، فانتمى عباس محمود العقاد إلى حزب الوفد، وكان قريبًا من سعد زغلول، وعمل محررًا لصحيفة حزب الوفد، كما انتمى طه حسين إلى حزب آخر، وكذلك محمد حسين هيكل وأحمد لطفي السيد إلخ...

ومن الواضح أن نظام الحكم لم يعد إسلاميًا، لذلك صدرت عدة قوانين متعددة مخالفة للإسلام فيما يتعلق بالاقتصاد والاجتماع والسياسة إلخ... فقد صدرت قوانين تبيح الربا والتعامل به، وتسمح بإقامة البنوك التي تقرض بالربا، وصدرت قوانين أخرى تبيح الخمور، وثالثة تبيح الزنا وتقيم المواخير له.

٣ ـ تغييرات اقتصادية:

نشأ اقتصاد رأسمالي في مصر عميل للرأسمالية الأوروبية، وقوام هذا الاقتصاد تحرير الأسعار، والارتباط بالسوق العالمية، واعتماد البنوك الربوية، والإقراض والاستقراض بالربا، وإلى جانب هذا النظام الرأسمالي كان هناك نظام إقطاعي زراعي، يقوم على ملكية الأراضي الواسعة لبعض العائلات، لذلك قسم هذا النظام الرأسمالي الإقطاعي المجتمع إلى طبقتين: طبقة ذات غنى فاحش، وطبقة من الفقراء، وكانت طبقة الفقراء تزداد فقرًا مع تقدم الزمن، وتتوسع عددًا، وأفرز هذا الوضع الاقتصادي مع الزمن تآكلًا للطبقة الوسطى.

ردود الفعل الشعبية على هذه التغييرات

تجسدت ردود الفعل الشعبية على هذه التغييرات في حركتين، اجتماعية وعلمية:

حركة الإخوان المسلمين: على المستوى الاجتماعي الشعبي.

حركة الأزهر الشريف وعلماء مصر: على المستوى العلمي.

ونحن سنرصد كيف واجهت هاتان الحركتان التغييرات التغريبية التي حدثت في مصر بعد الحرب العالمية الأولى.

حركة الإخوان المسلمين:

أسس حسن البنا رحمه الله حركة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨ في الإسماعيلية ردًّا على إلغاء الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٦، وسعيًا إلى إقامة دولة إسلامية بديلة عن تلك الدولة التي غابت.

وبعد سنوات محدودة اكتسبت هذه الحركة شعبية واسعة في مصر، وخارجها، وكان ذلك تعبيرًا من الشعب المصري على رفضه التغريب، فقد أعادت حركة الإخوان المسلمين ربط الشعب المصري بالعرب والإسلام والمسلمين، وتجاوزت القول بفرعونية مصر والمصريين، وقد ظهر ذلك عند اشتراكهم في حرب فلسطين عام ١٩٤٧، فقد التفت جماهير الشعب المصري حول الإخوان حتى أصبحت جماهيرهم أكثر عددًا من جماهير الأحزاب، وظهر ذلك في مختلف المجالات الطلابية والعمالية والنقابية، وأصبحوا رقمًا يطلب الآخرون وده للتعاون معه أو يحسب حسابه عند نزول ساحة الانتخابات.

لذلك فاوضت الأحزاب المصرية الرئيسية كحزب الوفد حركة الإخوان المسلمين أكثر من مرة في أكثر من مكان في الأربعينات من أجل التعاون والتنسيق حرصًا على كسب أصواتهم.

حركة الأزهر وعلماء مصر في مواجهة الأفكار التغريبية:

وقعت عدة أحداث علمية كبرى في مصر بعد الحرب العالمية الأولى، وقد أحدثت هذه الوقائع هزات عنيفة في المجتمع المصري، وسأعرض لبعضها في السطور التالية:

أ ـ كتاب «الإسلام وأصول الحكم» لعلي عبد الرازق:

ألف علي عبد الرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» عام ١٩٢٤، إثر سقوط الخلافة العثمانية وانتهاء الحكم الإسلامي فيها، وادعى فيه أن الرسول محمدًا ﷺ لم يأت حاكمًا، بل جاء داعيًا، وأنه ليس هناك حكم في الإسلام، وأن الخلافة من اختراع المسلمين.

وشكل هذا الكتاب هزة كبيرة في مصر، لأنه يعمق التوجه التغريبي في مصر، والذي يدعو إلى الفصل بين الدين والدولة، ويؤصل لإلغاء الحكم في الإسلام.

وقد تحرك الأزهر ورفع دعوى قضائية على الكاتب والكتاب، ثم انتهت المحكمة إلى إعدام الكتاب وسحبه من الأسواق، وتجريد الشيخ علي عبد الرازق من شهادته الأزهرية.

ولم يمر هذا الحدث الكبير دون ردود فعل عليه، فألف محمد رشيد رضا كتابًا تحت اسم «الإمامة العظمى» أصل فيه لضرورة الحكم في الإسلام، وشروط الحاكم، وواجبات الحاكم والمحكوم.

ب ـ كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين:

ألف طه حسين كتاب «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦، ادعى فيه أن القرآن الكريم أصدق تعبير عن حياة مكة والجاهلية من الشعر الجاهلي، وتوصل من خلال هذا العرض أن الشعر الجاهلي جميعه منحول، وتحدث بشكل صادم عن القرآن الكريم فقال: «للقرآن أن يحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولنا أن نصدق أو لا نصدق». واعتبر أن دعوى قريش نسبة الكعبة إلى إبراهيم عليه السلام هي دعوى كاذبة المقصود منها التكسب والارتزاق، والمقصود منها أيضًا إعطاء مكانة لقريش بين قبائل الجزيرة العربية.

وأثار الكاتب ردود فعل كبرى في مصر والعالم الإسلامي، وألفت مجموعة كتب في الرد عليه منها:

«تحت راية القرآن» لمصطفى صادق الرافعي، ثم أقام الأزهر دعوى على طه حسين وكتابه وصدر حكم بسحب الكتاب من الأسواق وإحراقه وحذف العبارات التي فيها اجتراء على القرآن الكريم، واضطر هذا الحكم طه حسين إلى إعادة طباعته تحت عنوان «في الأدب الجاهلي».

وقد درس محمد البهي كتاب طه حسين «في الأدب الجاهلي» بعد الحذف والتغيير، ونوه إلى خطورته، وبين أنه ما زال يحمل فكرة خطيرة ويروج لها، وهي «بشرية القرآن الكريم».

ج ـ الرد على الادعاء بأن حضارتنا حضارة نقل من اليونان ولا إبداع فيها:

لقد ادعى بعض المستشرقين وأتباعهم من الحداثيين أنه ليس هناك إبداع في

حضارتنا، وأنها كانت حضارة نقل من الحضارة اليونانية واكتفت بنقل الفلسفة اليونانية، ولم تزد عليها شيئًا، فرد عليهم الدكتور مصطفى عبد الرازق وألف كتابًا سماه «تمهيد تاريخ الفلسفة الإسلامية» عام ١٩٤٤ وبين فيه جوانب الإبداع الفلسفي في حضارتنا، وبين أن «علم أصول الفقه» الذي ابتكره الشافعي في كتاب «الرسالة» دليل على وجود الإبداع العقلي، وحجة على المستشرقين وأذنابهم.

❊ ❊ ❊

المرحلة الثالثة: تأثير الحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الثانية المشروع الاشتراكي الماركسي ١٩٥٢ ـ ١٩٧٠م

زلزال قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ واغتيالات وانقلابات:

انتهت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥، وانتهت بانتصار الحلفاء وعلى رأسهم: أمريكا وروسيا وبريطانيا إلخ...، وبانهزام دول المحور وعلى رأسها: ألمانيا وإيطاليا واليابان إلخ...، وقام نظام جماعي جديد، جسدته منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وكانت نيويورك مقرًا لهما، كما أصدرت الأمم المتحدة بيانًا فصلت فيه حقوق الإنسان.

واستقلت عدد من الدول العربية، منها: سورية، ولبنان، والأردن إلخ...، لكن ومع زلزال كبير تجسد بقيام إسرائيل عام ١٩٤٨، واعتراف دولتي روسيا وأمريكا بها أولًا، ثم اعتراف الأمم المتحدة بها، وجعل هذا الزلزال المنطقة تموج اضطرابًا، فقام انقلاب في سورية عام ١٩٤٩ قاده الضابط حسني الزعيم، وتم اغتيال الملك عبدالله عام ١٩٥١، وتم اغتيال رئيس وزراء لبنان رياض الصلح عام ١٩٥٠، ثم كانت ذروة هذه التغييرات بقيام انقلاب عام ١٩٥٢ بقيادة جمال عبد الناصر وكتلة الضباط الأحرار.

وقد جاء هذا الانقلاب بداية مرحلة تغيير جذري في المنطقة، وبداية انطلاق مشروع جديد من أجل تغريب المنطقة هو «المشروع الاشتراكي الماركسي للتغريب»، وقد بدأ من مصر وامتد إلى معظم الدول العربية، ومنها: سورية، العراق، اليمن، الجزائر، السودان، الصومال.

ونحن سنرصد مراحل عمل هذا المشروع في مصر، لأن معظم البلدان العربية سارت على النهج نفسه.

وسنبدأ في رصد التغييرات التي قام بها هذا المشروع، فكانت في مجالات: الهوية والانتماء، والسياسة والحكم، والاقتصاد، والجيش، والاجتماع إلخ...، وسنعرضها بالتفصيل في الصفحات التالية.

١ ـ تغييرات في الهوية والانتماء:

بدأ عبد الناصر مشروعه بنقلة كبيرة في انتماء مصر، فبعد أن كانت مصر تعتبر نفسها ذات انتماء قومي فرعوني بعد الحرب العالمية الأولى، جعلها جمال عبد الناصر ذات انتماء قومي عربي بعد الحرب العالمية الثانية، واعتبر مصر جزءًا من الأمة العربية، وتبنى الفكر القومي العربي الذي يأخذ بالنظرية الألمانية في الفكر الغربي، والتقى عبد الناصر بساطع الحصري في القاهرة، وأهدى الأخير للأول كتبه التي تربط بين القومية العربية، التي جعلتها على غرار القومية الألمانية، ثم انتقل الانتماء «القومي العربي» إلى كثير من الدول العربية، وانتصرت الحركات القومية العربية في معظم البلدان العربية، ومنها: سورية، العراق، اليمن، الجزائر، ليبيا، السودان، الجزيرة العربية إلخ...

وقد أبرز عبد الناصر في عمله السياسي والإعلامي، بغية تحقيق «الوحدة العربية» وأهميتها في تشكيل قوة للأمة العربية، وحل مشاكلها، وأقام أول وحدة سياسية في التاريخ المعاصر، وهي وحدة مصر وسورية عام ١٩٥٨ وبعد أن أمم جمال عبد الناصر كل القطاع الخاص الموجود في مصر وسورية من بنوك وشركات ومصانع عام ١٩٦٠، متأثرًا بعلاقته السياسية بالاتحاد السوفيتي منذ عام ١٩٥٥، والتي أثمرت تحولًا في التوجهات الفكرية، وجعلته يتبنى الاشتراكية، التي تقوم على محاربة الطبقة الرأسمالية والإقطاعية والاعتماد على طبقتي العمال والفلاحين في قيادة المجتمع، وإعطائهما أغلبية المقاعد في البرلمان، والاتحاد الاشتراكي الذي شكله ليقود المجتمع.

٢ ـ تغييرات في نظام الحكم:

ألغى عبد الناصر بعد قيام ثورة ١٩٥٢ النظام الملكي وحوّل مصر إلى النظام الجمهوري، كما ألغى النظام الديمقراطي الذي اعتبره أداة في يد الإقطاعيين والرأسماليين، وألغى حرية الأحزاب، وأوجد «الاتحاد القومي» وهو عبارة عن مؤسسة جماهيرية تشمل جميع أبناء الشعب المصري بديلًا عن الأحزاب، ثم سماها «الاتحاد الاشتراكي» عندما

حوّل النظام الاقتصادي الحر الرأسمالي إلى النظام الاشتراكي، وأعطى نصف مقاعده للعمال والفلاحين.

٣ ـ تغييرات في الأمور العسكرية:

من الواضح أن الجيش المصري قبل مجيء عبد الناصر إلى الحكم، كان مرتبطًا بإنجلترا في كل أموره العسكرية: تسليحًا وتدريبًا وعقيدة وتوجيهًا إلخ...، لكن حدث تغيير بعد معارك مصر وإسرائيل عام ١٩٥٤، قتلت فيها إسرائيل عددًا كبيرًا من الفلسطينيين في غزة، فطلب تسليحًا من الغرب، لكن الغرب يحظر التسليح على الدول العربية بسبب قتالها مع إسرائيل، فاتجه عبد الناصر إلى المعسكر الشرقي وطلب أسلحة من تشيكوسلوفاكيا، وكان هذا الطلب بداية تحول بالنسبة للمنطقة جميعها، وأصبح الاتحاد السوفيتي وروسيا الشيوعية هما مصدر تسليح جميع الجيوش العربية وهي: مصر، سورية، العراق، الجزائر، اليمن، السودان، ليبيا، الصومال إلخ...

وتغيرت العقيدة القتالية بالنسبة لجميع الجيوش العربية التي تسلحت بالأسلحة السوفيتية.

٤ ـ تغييرات في الموقف من الدين:

لقد حدث تغيير في الموقف من الدين بعد مجيء جمال عبد الناصر إلى الحكم، واعتماده «المشروع الاشتراكي الماركسي» فقد كان الموقف أثناء سيطرة المشروع القومي بشقيه العربي والفرعوني، معاديًا للدين، ولكنه كان يكتفي بإبعاده عن التدخل في مختلف أمور الحياة: السياسية والاقتصادية والعسكرية والتربوية إلخ...، وجعله محصورًا في المسجد، وجعله شأنًا شخصيًا يخص الفرد في إقباله على الدين أو إدباره عنه.

لكن الوضع تغير بعد اعتماد «المشروع الاشتراكي الماركسي» فأصبح الموقف المعتمد من الدولة هو اقتلاع الدين من العقول والنفوس ومحاربة المتدينين، لأن الدين

في نظر الاشتراكية والماركسية هو خرافة وأوهام، وهو يعطل الإنسان وحيويته وفاعليته، وهو وسيلة يستغلها رجال الدين والأغنياء لاستغلال الفقراء، لذلك وقفت الدولة في بعض الدول موقفًا جذريًا من الدين والمتدينين، وهذا الموقف يتلخص في اقتلاع الدين، واستئصال المتدينين.

وقد أعلن جمال عبد الناصر الموقف بعد الانفصال عام ١٩٦١، إذ اعتبر أن الطبقة البرجوازية الإقطاعية هي التي أوقعت الانفصال عام ١٩٦١ بسبب القرارات الاشتراكية التي أمم فيها القطاع الخاص عام ١٩٦٠، لذلك نحا منحى متطرفًا نحوها، واحتل أصحاب الفكر الشيوعي الماركسي مـواقع متقدمة فـي الإعلام والثقافة ومراكز القيادة، وأكثر من ترجمة وطباعة كل ما يتعلق بالنظرية الماركسية وحشو عقول الجماهير بها، وأصبح الإلحاد وإنكار وجـود الله شائعًا بين الشباب، وأصبح اعتبار الكون مادة ورفض كل الغيوب واعتبارها مقولة غير علمية.

٥ ـ تغيير في الاقتصاد:

منذ بداية الثورة عام ١٩٥٢ طرح عبد الناصر تطلعه إلى حل مشكلة الفقر والفقراء في مصر، وكانت مصر أرضًا زراعية خصبة، لكنها في عمومها ملك لبعض العائلات الإقطاعية القريبة من الملك، لذلك اتجه عبد الناصر منذ اللحظة الأولى إلى تحديد سقف الملكية الزراعية، ووزع كثيرًا من أراضي الإقطاعيين على الفلاحين، وطرح مشروعًا «للإصلاح الزراعي»، ثم لما وطد علاقته بالاتحاد السوفيتي، واعتمد المنهج الاشتراكي في المجال الاقتصادي، وأمم كل المرافق الاقتصادية في مصر كالمصانع والبنوك والشركات إلخ...، وأعلن تأميم كل ذلك من أجل الشعب المصري الفقير، وإحقاقًا لحقه في الثروة، لكن كل ذلك لم يتحقق، وتوسعت الطبقة الفقيرة.

٦ ـ تغييرات في السياسة:

كانت مصر من الدول التابعة للغرب منذ القرن التاسع عشر لأنها احتلت من قبل الإنجليز عام ١٨٨٢، وبعد مجيء عبد الناصر إلى الحكم، أقام علاقات مع المعسكر الشرقي عام ١٩٥٥ إثر شرائه صفقة السلاح من تشيكوسلوفاكيا، وعندما أمم قناة السويس صيف عام ١٩٥٦، هاجمته إنكلترا وفرنسا وإسرائيل في حرب ١٩٥٦ بقصد استرداد ملكية قناة السويس، ثم وقف الروس والأمريكان في وجه هذا الاعتداء، وأجبرت الأمم المتحدة بناء على ضغط من روسيا وأمريكا الدول المعتدية وهي إنكلترا وفرنسا على الانسحاب من القناة ومن سيناء.

ثم توثقت علاقة جمال عبد الناصر بالاتحاد السوفيتي عندما أخذ مساعدات لبناء السد العالي الذي سحبت أمريكا عرضها لبنائه، ووقفت في وجه الأحلاف، وأبرزها حلف بغداد الذي شكله نوري السعيد عام ١٩٥٥ والذي انضمت إليه تركيا وإيران وباكستان.

إن أبرز تغيير أجراه عبد الناصر في السياسة الخارجية لمصر، هو أنه نقل مصر من بلد يدور في فلك الغرب إلى بلد يتعاون مع روسيا، ثم شكل تيارًا جديدًا مع كل من تيتو حاكم يوغوسلافيا ونهرو حاكم الهند أخذ مسمى جديدًا هو «الحياد الإيجابي»، وعقد أول مؤتمر له في «باندونج» في إندونيسيا عام ١٩٥٥، وأصبحت هناك كتلة تسمى «كتلة الحياد الإيجابي» تشمل عشرات الدول في آسيا وأفريقيا.

آثار «المشروع الاشتراكي الماركسي» على الأمة والإسلام والعلماء والحركات الإسلامية:

من المؤكد أن آثار «المشروع الاشتراكي الماركسي» كانت متعددة على الأمة، وأصابتها بالتخريب والتدمير في مختلف المجالات الفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والأسرية إلخ...، ومن الواضح أنها كانت من أقسى الفترات

فـي التاريـخ علـى الديـن بشـكل عـام، وعلـى العلمـاء وعلـى المتدينيـن والحـركات الإسـلامية بشـكل خاص.

فقد اعتبر «المشروع الاشتراكي الماركسي» أن الدين الإسلامي هو العقبة التي تقف في وجه النهضة والتقدم والرقي والبناء الحضاري، لذلك يجب اقتلاعه من العقول والقلوب، ومحاربته بكل الوسائل، كما اعتبر أن العلماء والمشايخ هو مروجو الغيوب والأوهام والخرافات لذلك يجب إبعادهم عن قيادة المجتمع بل عن أي دور اجتماعي، وقد راجت المقولات الماركسية التي تقول بأن الكون مادة، وأنه ليس هناك إله في كل وسائل الإعلام والثقافة والمجلات والصحافة إلخ...، كما أثر «المشروع الاشتراكي الماركسي» على الأخلاق، فانتشر الانحلال، والمجاهرة بالمعاصي، أما على المستوى الاقتصادي فقد دمر «المشروع الاشتراكي الماركسي» الاقتصاد، فقد أفقر الطبقة الوسطى، وأصبحت برفقة الطبقة الفقيرة، لأن القطاع العام لم ينجح، ولم تقم صناعات كبيرة وراسخة، وهجر الفلاحون أراضيهم وضاقت بهذا الرقعة الزراعية، وقل الإنتاج الزراعي.

لماذا وقعت النكسة وتعثرت النهضة؟

السبب الرئيسي في ذلك هو معاداة الدين، ومحاولة زعزعة إيمان الفرد المسلم، ومحاولة اقتلاعه من القلوب، فأوجد اضطرابًا فـي إيمان الفرد وبنائه النفسي واستقراره المعنوي، فجعل ذلك ينعكس في إنتاجه، ومردوده عليه، ويـؤثر سلبًا على كل مجالات الإنتاج العلمي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري.

***

المرحلة الرابعة: الصحوة الإسلامية والمشاريع المعطلة لها لصالح التغريب ١٩٧٠ ـ ٢٠١١

بدأت هذه المرحلة بزلزال نكسة عام ١٩٦٧، والتي انهزمت فيها ثلاثة جيوش عربية هي: الجيش المصري، الجيش السوري، الجيش الأردني، أمام إسرائيل في ستة أيام، وشكلت هذه الهزيمة انكشافًا لقيادات هذه المرحلة، وخسران الثقة الكبيرة التي وضعتها جماهير الأمة في تلك القيادات، وضياع الآمال الكبيرة في تحرير فلسطين، والتغلب على إسرائيل ودحرها، وضياع الآمال ـ كذلك ـ في قيام نهضة صناعية واقتصادية كبرى، وفي تحقيق العدالة الاجتماعية وإنهاء حالات الفقر في المجتمع.

تبخرت كل تلك الآمال والأحلام التي عاشتها جماهير الأمة خلال العقدين المنصرمين، وصحت الجماهير على كابوس الهزيمة المخزية عام ١٩٦٧ أمام العدو الإسرائيلي، وهنا عاد الناس إلى الدين وبدأت الصحوة الإسلامية، واتضح للناس الدور المخزي للمشروع الماركسي الاشتراكي، الذي خرب الإنسان والمجتمع والاقتصاد والثقافة والتربية والإعلام إلخ...

وعادت جماهير الأمة إلى الدين بشكل قوي وصريح في عدة مجالات منها: الحجاب، فقد عادت جمهرة كبيرة من النساء إلى الحجاب، بعد انتشار كبير للسفور في العهد الاشتراكي الماركسي، وتشجيع الإعلام والأحزاب الاشتراكية الماركسية على خلع الحجاب، وترويج عدة أكاذيب عن الحجاب منها: أنه عادة جاهلية، وأنه قيد على حرية المرأة.

وقد عادت جماهير كبيرة إلى الاقتصاد الإسلامي، فأنشأت شركات اقتصادية وتجارية على أسس إسلامية، وأنشأت كذلك بنوكًا إسلامية، وقامت جميعها على تحريم الربا الذي اعتمده النظام الرأسمالي، ونجحت هذه الشركات والبنوك، وأصبحت هي سيدة الحياة الاقتصادية.

وارتفع صوت الإسلام في مختلف المجالات الثقافية، ليؤكد خطأ المرحلة السابقة في كل دعاويها المجحفة بحق الدين وعلمائه وحقيقة دوره، وأهمية وجوده من أجل حياة أفضل، ورافق ذلك انتشار للكتاب الإسلامي، ورواج طباعته.

وخاض أبناء الصحوة الإسلامية الانتخابات في أكثر من بلد عربي، ونجحوا في الوصول إلى المجالس النيابية، والتفت الجماهير حولهم، وأظهرت تأييدها لهم.

لقد كانت هذه بعض مظاهر الصحوة الإسلامية، واستفادت الأحزاب الإسلامية وجماعاتها وحركاتها من هذه الصحوة الإسلامية وحاولت أن تقفز إلى الحكم، فكانت المحاولات التالية:

١ ـ الثورة السورية عام ١٩٨٠:

وصل حزب البعث العربي الاشتراكي إلى الحكم في سورية في ٨ من آذار عام ١٩٦٣، وكان ذلك بواسطة لجنة عسكرية فيها حافظ الأسد، ثم انقلب حافظ الأسد على رفاقه في الحزب، ثم استأثر حافظ الأسد بالحكم والسلطة عام ١٩٧٠، وجعلها حكرًا على أسرته وأعوانه وطائفته، وحكم سورية بالحديد والنار، وأنشأ أربعة عشر جهاز مخابرات لمراقبة الناس وإحصاء أنفاسهم، وربط كل الأعمال بأجهزة المخابرات من البيع والشراء والسفر والتنقل والتعليم والإعلام والفكر والثقافة والمساجد إلخ...، ونهب مع طائفته كل خيرات سورية، وترك السكان قراهم وأريافهم وهاجروا إلى المدن بحثًا عن لقمة العيش، ونشأت عشوائيات كبيرة محيطة بالمدن مثل دمشق وغيرها، وأصبح القسم الأكبر من الشعب تحت خط الفقر، واحتكر القرار السياسي هو وعائلته، كما ركز الإعلام على شخصه وأسرته، وورث الحكم لابنه بشار عام ٢٠٠٠ بشكل هزلي، فاضطر معاونوه لتغيير الدستور من أجل جعله ملائمًا لسن ولده بشار.

إزاء هذا الوضع المتردي في سوريا، حدثت عدة ثورات بعد وصول حزب البعث إلى

الحكم عام ١٩٦٣، وبعد اختطاف سورية من قبل عائلة الأسد والطائفة العلوية، ومن هذه الثورات: ثورة مسجد السلطان في حماة أولًا وعموم سورية ثانيًا عام ١٩٦٤، وثورة المسجد الأموي عام ١٩٦٥، ثم قامت ثورة عام ١٩٨٠، والتي شملت عموم سورية ووقعت معارك طاحنة في عدة مدن منها: حلب، جسر الشغور، إدلب، حمص إلخ...، وكانت المذبحة الكبرى في حماة في شباط/ فبراير ١٩٨٢ فدخلت قوات النظام مدينة حماة ودمرتها تدميرًا كاملًا، وقتلت آلاف المدنيين أعدمتهم أمام أسرهم، واستباحتها لعدة أيام.

وانتهت الثورة بأن أحكم النظام الأسدي قبضته على البلد، وازداد في إحكام السيطرة الأمنية على كل شؤون الشعب السوري.

٢ ـ قيام حسن الترابي وعمر البشير بانقلاب في السودان عام ١٩٨٩:

لقد نجح حسن الترابي بالتنسيق مع عمر البشير في القوات المسلحة بالقيام بانقلاب عام ١٩٨٩، ولكنهما اختلفا بعد ذلك، وأبعد عمر البشير الترابي عن الحكم، وسجنه ثم أخرجه، لكن هذه التجربة لم تنجح، وأسقط البشير في النهاية عام ٢٠١٩ بعد ثورة شعبية بقيادة عبد الفتاح البرهان.

٣ ـ فوز جبهة الإنقاذ في الجزائر عام ١٩٩١ بأغلبية مقاعد البرلمان الجزائري:

شكل عباسي مدني رحمه الله جبهة الإنقاذ بعد وفاة هواري بومدين ونشوء حالة جديدة في البلاد تسمح بنشوء أحزاب وبرلمان وانتخابات قادها الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد عام ١٩٩٠ وجرت انتخابات برلمانية في هذه المرحلة الجديدة، وكانت نتيجة الانتخابات فوز جبهة الإنقاذ التي شكلها عباسي مدني بحوالي ٩٠٪ من المقاعد البرلمانية، لكن الجيش والجنرال خالد نزار رفض هذه الانتخابات، وقام بانقلاب وألغى هذه الانتخابات، واضطهد التيار الإسلامي، ثم جاءت العشرية الحمراء التي استمرت عشر سنوات بين ١٩٩٢ ـ ٢٠٠٢، وانتهت بمجيء عبد العزيز بوتفليقة الذي عزل عام ٢٠١٩ وجاء عبد المجيد تبون رئيسًا للجمهورية.

ليس من شك بأن فشل عباسي مدني في تثبيت فوزه بالانتخابات يعود لعدم وجود وعي حقيقي ودقيق عند عباسي مدني وقيادة جبهة الإنقاذ عن دور الجيش في الدولة الجزائرية، وأنه صاحب السلطة العليا فيها، وأنه يملك القرار النهائي في حكمها والسيطرة عليها، إن عدم وعي هذه الحقيقة أو تجاهلها هو الذي جعل جبهة الإنقاذ تسقط وتبعد عن السلطة.

من المؤسف أن عباسي مدني تعامل مع حقيقة دور الجيش في الجزائر تعاملًا عاطفيًا وليس تعاملًا عقلانيًا، بل كان يتصور أن الجيش سيقف مع الإرادة الشعبية التي ظهرت في إنجاح قائمة جبهة الإنقاذ، ونسي أن الجيش مبني على منهج علماني لا يمكن أن يسمح للقوى الإسلامية بالسيطرة على الدولة والبلاد.

٤ ـ استلام طالبان حكم أفغانستان عام ١٩٩٥ ثم إسقاطها بعد الغزو الأمريكي عام ٢٠٠١:

لقد تم تحرير أفغانستان من الروس عام ١٩٨٩، لكن الثوار الذين عاشوا سنوات الجهاد أمثال: عبد رب الرسول سياف ورباني وحكمتيار وأحمد شاه مسعود إلخ... اصطرعوا، وتقاتلوا في كابل وحول كابل، وبرزت طالبان بعد ذلك وسيطرت على كل أفغانستان ودخلت كابل عام ١٩٩٥.

ثم جاء إليها المقاتلون العرب وعلى رأسهم أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، وبايعوا الملا عمر أميرها.

ثم أعلن أسامة بن لادن والظواهري قيام جبهة مقاتلة اليهود والنصارى عام ١٩٩٦، ثم نفذت هذه الجبهة عدة عمليات ضد أمريكا، وكان أبرزها إسقاط البرجين في نيويورك عام ٢٠٠١.

واتهمت أمريكا أسامة بن لادن بالوقوف وراء التفجيرات، وطلبت من أفغانستان

تسليمه لها، ورفضت أفغانستان ذلك، وغزت أمريكا أفغانستان عام ٢٠٠١ وأسقطت نظام طالبان عام ٢٠٠١، وجاءت حكومة كرزاي التي قادت البلاد بعد ذلك.

ليس من شك بأن إسقاط طالبان كان جزءًا من مخطط دولي رسمه الغرب من أجل تغيير خريطة المنطقة، بدأ بغزو أمريكا لأفغانستان عام ٢٠٠١، ثم غزو أمريكا للعراق عام ٢٠٠٣، لكن ذلك لا يجعلنا نعفي قيادة طالبان وأسامة بن لادن من الأخطاء التي وقعوا فيها وجعلوها مبررة استندت إليها أمريكا في غزوها لأفغانستان[١].

لماذا فشلت التجارب السابقة في الحكم؟

من الواضح أن هناك تدخلات خارجية أفشلت التجارب الإسلامية التي قامت في المنطقة بدءًا من الثورة السورية عام ١٩٨١، ثم ثورة مصر والتي تجلت بقتل السادات عام ١٩٨١، ثم ثورة السودان التي أجهضت في عام ١٩٩٩ باختلاف حسن الترابي وعمر البشير وتصارعهما ثم انتهت بإسقاط عمر البشير عام ٢٠١٩، ثم ثورة جبهة الإنقاذ التي أنهاها الجيش الجزائري بإلغائها والانقلاب عليها عام ١٩٩٢، ثم ثورة طالبان التي أسقطها الغزو الأمريكي لأفغانستان عام. ٢٠٠١

من الواضح أن عامل التدخل الخارجي الغربي عامل رئيسي في إفشال جميع التجارب التي قامت في المنطقة، ولكن هذا ليس هو العامل الرئيسي في الفشل، لكن علينا أن نعترف بأن جميع الحركات التي قامت بالثورة كان فيها خلل وقصور ونقص ذاتي متعدد الأنواع والأبعاد، هو العامل الرئيسي في فشلها، وهذا الخلل والقصور والنقص موجود في المنهج حينًا، وعند القيادة حينًا آخر، وفي الوعي العميق والشامل للواقع المحيط حينًا ثالثًا، وفي بناء الجندي حينًا رابعًا.

---

(١) انظر تفصيل هذه القضية في كتابي «الحركات الإسلامية والدعاة الجدد» في الصفحات التالية «أسامة بن لادن في الميزان» صفحة ٢٩، و«قراءة في كتاب إدارة التوحش للقاعدة» صفحة ٤١، و«قراءة في كتاب إعلام الأنام بقيام دولة الإسلام» صفحة ٥١.

يجب أن نعترف بأن الخلل والقصور والنقص قائم في العامل الذاتي للحركات الإسلامية بالدرجة الأولى، ثم يأتي دور الغرب الخارجي في الحيلولة دون نجاح الحركات الإسلامية، مستفيدًا من عوامل الخلل والقصور والنقص التي قامت عليها الحركات، ونفذ من خلاله ليهدم جميع الحركات، ويعرقل مسيرتها.

إلى جانب كثرة المحاولات في ترسيخ الحكم الإسلامي، قامت مشاريع لتعطيل الصحوة الإسلامية وهي:

١ ـ مشروع «اتفاقيات السلام» العربية ـ الإسرائيلية:

قامت حرب أكتوبر ١٩٧٣ بين إسرائيل ومصر وسورية، ثم زار أنور السادات إسرائيل عام ١٩٧٧، وانتهت هذه الزيارة بتوقيع اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨ بين إسرائيل ومصر في أمريكا، ثم تبعتها منظمة التحرير فوقعت اتفاقية أوسلو مع إسرائيل عام ١٩٩٣، ثم وقعت الأردن اتفاقية وادي عربة مع إسرائيل عام ١٩٩٤.

إن اتفاقيات التطبيع التي عقدتها إسرائيل مع كل من مصر ومنظمة التحرير والأردن، كانت أمريكا عراب هذه الاتفاقيات، وهذا التطبيع كان يعني الارتباط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي بأمريكا ويعني الانفتاح الرسمي على إسرائيل في كل المجالات، وكل هذا سيساعد على التغريب الثقافي والفكري والاجتماعي والسياسي للمجتمع، ويعني مزيدًا من التأثير للحضارة الغربية في مختلف مجالات حياة الشعوب العربية.

٢ ـ «مشروع ملالي إيران» عام ١٩٧٩:

وصل الخميني إلى طهران في شباط (فبراير) عام ١٩٧٩، وبدأت المنطقة مرحلة جديدة من تطلع ملالي إيران إلى تحويل المنطقة إلى منطقة شيعية بعد أن كانت سنية، ودخلت المنطقة في صراع جديد بين المنظومة الثقافية الشيعية والمنظومة الثقافية السنية، وبدأت حرب بين العراق وإيران استمرت لمدة ثماني سنوات بين عامي ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨، أكلت الأخضر واليابس في البلدين: إيران والعراق والمنطقة جميعها.

واستطاع مشروع ملالي إيران أن يلعب دورًا أساسيًا في تفتيت المنطقة ثقافيًا وسياسيًا، واستطاع مشروع ملالي إيران أن يحتل أربع عواصم عربية حتى الآن، وهي: بغداد، دمشق، بيروت، صنعاء، وقد دمر هذه الدول الأربعة التي احتل عواصمها، وهذا التدمير يصب في صالح المشروع الإسرائيلي الذي يسعى إلى تفتيت المنطقة، وإقامة هيمنته عليها في النهاية.

٣ ـ مشروع الشرق الأوسط «الجديد» و«الفوضى الخلاقة»:

من المستجدات التي برزت على ساحة المنطقة في هذه الفترة «مشروع الشرق الأوسط الجديد» الذي طرحه بوش عندما غزا العراق عام ٢٠٠٣، والمقصود من هذا المشروع هو ترسيخ القيم الغربية التي أفرزتها الحضارة الغربية من مثل: الديمقراطية، تحرير المرأة، إزالة الديكتاتوريات، حرية الشعوب، إقامة البرلمانات والأحزاب والنقابات، نشر اللغة الإنجليزية إلخ...، وكانت «الفوضى الخلاقة» إحدى الأدوات التي استخدمتها أمريكا من أجل إحداث تغيير في المنطقة.

وقد أقامت أمريكا العديد من المؤسسات والهيئات من أجل تنفيذ أغراض «مشروع الشرق الأوسط الجديد» وتحقيق أهدافه، سواء بشكل مباشر أم عن طريق مؤسسات الأمم المتحدة، وخصصت لذلك ملايين الدولارات.

لم تتحقق الديمقراطية والحرية التي وعد بها بوش من «مشروع الشرق الأوسط الجديد» الذي وعد العرب به، لكن الذي تحقق هو تدمير العراق، ومقتل الملايين، وتدمير البنية التحتية فيه وتسليم العراق على طبق من ذهب إلى إيران، كما ذكر مبعوث الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي، وكل ذلك أتى لمصلحة إسرائيل التي استفادت من أنها تخلصت من خطر الجبهة الشرقية التي كان العراق يمثل عمودها الرئيسي.

إن هذه الخطوات الثلاث التي ذكرناها سابقًا وهي: اتفاقيات التطبيع، ومشروع ملالي إيران، ومشروع الشرق الأوسط الجديد، جعلت المنطقة أكثر اضطرابًا، وقلقة، وهذا ما

أعطى الفرصة لقيام أعتى الديكتاتوريات، وأوحشها، وأكثرها دموية في العالم والمنطقة، وقد تم ذلك بموافقة الغرب وتأييده ودعمه، وهو ما سنشرحه في الفقرة التالية.

٤ ـ «مشروع قيام ديكتاتوريات وحشية في المنطقة»:

قامت في هذه الفترة ديكتاتوريات في المنطقة من أعتى الديكتاتوريات وأشدها فتكًا وقتلًا وتدميرًا، وهذه الديكتاتوريات هي: ديكتاتورية حافظ الأسد في سورية، وحسني مبارك في مصر، وزين العابدين في تونس، ومعمر القذافي في ليبيا، صدام حسين في العراق إلخ...

وقد بنت هذه الديكتاتوريات أجهزة مخابرات قوية أحصت أنفاس الناس وضيقت عليهم، كما بنت جيوشًا قوية لمقاتلة المعارضين وتدميرهم، واستولت على الأموال واستأثرت بها، وحصرت العمل السياسي بها وبأسرتها وبمشايعيها إلخ...

تحدثت في الصفحات السابقة عن «الصحوة الإسلامية» وعن الحركات الإسلامية التي حاولت الاستفادة منها لاستلام الحكم في: سورية، والسودان، والجزائر، وأفغانستان ولكنها لم تنجح، ثم تحدثنا عن المشاريع التي طرحت لتعطيل «الصحوة الإسلامية» وهي: «مشاريع السلام العربية الإسرائيلية»، «ومشروع ملالي إيران»، و«مشروع الشرق الأوسط الجديد والفوضى الخلاقة» و«مشروع الديكتاتوريات الوحشية»، لكنها انتهت جميعها بزلزال فاجأها جميعًا وهو «ثورات الربيع العربي» التي بدأت في تونس في ١٥ ـ ١ ـ ٢٠١١، ثم في مصر في ٢٥ ـ ١ ـ ٢٠١١ ثم في سورية وليبيا واليمن، والتي انتهت بإسقاط الطواغيت كالقذافي، وزين العابدين بن علي، وحسني مبارك.

***

المرحلة الخامسة: الربيع العربي (٢٠١١ ـ ٢٠٢٢)

نجاحات وتعثرات

لقد جاء الربيع العربي بعد أن عطلت بعض المشاريع الغربية «الصحوة الإسلامية» من مثل: «مشاريع السلام الإسرائيلي ـ العربي» و«مشروع الشرق الأوسط الجديد»، وجاء الربيع العربي زلزالًا هز المنطقة، ويمكن أن نعتبره بداية لمرحلة جديدة، فما هي أسباب هذا «الربيع العربي»؟

أولًا: أسباب الربيع العربي:

١ ـ قيام حكومات ديكتاتورية ذات قبضة أمنية متغولة:

اتصفت الحكومات التي قامت بعد «الصحوة الإسلامية» عام ١٩٧٠ بأنها حكومات ديكتاتورية، وتملك قبضة أمنية لا مثيل لها، وتملك أجهزة مخابرات تراقب الناس وتحصي أنفاسهم، وتتابع تفصيلات حياتهم، وتحاسبهم على كل كلمة وتصرف، وربطت أمور معاشهم وسفرهم وتنقلاتهم وتجارتهم وتعليمهم بأجهزة المخابرات التي رعتها ونمتها وصرفت عليها ملايين الدولارات، وجلبت أحدث الأجهزة التي تساعد الحكومات على حسن مراقبة الجماهير ومتابعتها.

وأمدت الحكومة أجهزة الشرطة والجيش بأدوات للبطش بمن يفكر بالتحرك أو العصيان أو الخروج على الحكم.

ومن أبرز الأمثلة التي تؤكد ما تحدثنا عنه:

القذافي في ليبيا، فقد أنشأ عدة جيوش في ليبيا لحماية ملكه، وكانت هذه الجيوش بقيادة أولاده، وأعطى لكل ولد ميزانية كاملة مستقلة لكي يسلح جيشه تسليحًا كبيرًا وبأحدث الأسلحة، وهو أنفق ميزانية ليبيا النفطية الهائلة على صناعة هذه الجيوش وتمويلها وترسيخها لتطويع الشعب الليبي، وإرغامه على الخضوع والاستكانة.

أما حافظ الأسد فقد أنشأ أربعة عشر جهازًا أمنيًا وربط هذه الأجهزة بجهات مختلفة، وأعطاها صلاحيات مطلقة، وأطلق يدها في سلب أموال الناس مقابل تسيير أمورهم.

وقس على ذلك بقية الحكومات الديكتاتورية.

٢ ـ احتكار الأسر الحاكمة للقرار السياسي:

احتكرت الأسر الحاكمة القرار السياسي لها ولعائلتها أولًا، ثم لبعض المقربين لها، فحافظ الأسد حصر القرار السياسي في شخصه وأسرته وإخوته وأضاف إليها أهل زوجته عائلة مخلوف، لذلك خطط ليخلفه ولده باسل الأسد، ولما مات باسل الأسد بشكل مفاجئ، جاء ببشار الأسد من إنجلترا وهيأه خلال أشهر ليخلفه في الرئاسة، ودربه على ذلك، وعندما مات حافظ الأسد وكان عمر بشار الأسد أقل من العمر الذي يتطلبه الدستور، فجمعوا البرلمان من أجل ذلك، وجعلوا العمر المطلوب في الدستور مناسبًا لعمر بشار، وكأن سورية حظيرة دجاج لحافظ الأسد وأسرته، وخلت من الرجال الذين يصلحون لقيادة سورية ورئاسة جمهوريتها.

وكذلك فعل حسني مبارك (١٩٨١ ـ ٢٠١١) فاستأثر بالقرار السياسي هو وجملة من الوزراء المقربين له، ثم أراد توريث ابنه جمال، فوضعه مسؤولًا في الحزب الوطني، وبدأ بتدريبه وتهيئة الأجواء له، وتواصل مع واشنطن من أجل هذا الأمر، وكانت هذه التصرفات أحد عوامل انبثاق الربيع العربي.

وكذلك فعل زين العابدين بن علي استأثر بالقرار السياسي مع زوجته ليلى الطرابلسي وأشقائها، وزوجي ابنتيه وبشكل أخص صخر الماطري.

وكذلك فعل علي عبد الله صالح (١٩٧٨ ـ ٢٠١٧) حاول أن يورث الحكم لابنه لكنه فشل في ذلك.

وكذلك فعل القذافي (١٩٦٩ ـ ٢٠١١) فقد أبرز ابنه «سيف الإسلام القذافي» في

السنوات الأخيرة، وحاول أن يلعب دورًا سياسيًا ويتواصل مع جماهير الشعب الليبي من أجل أن يرث أباه، ولكن الثورة عاجلتهم وانتهت بقتل الأب معمر القذافي في ٢٠ تشرين الأول ٢٠١١، وسجن الابن سيف الإسلام القذافي.

٣ ـ نهب الأسر الحاكمة لأموال الشعوب:

نهبت الأسر الحاكمة في كل الدول الديكتاتورية أموال الشعوب، وصرفتها على شؤونها الخاصة وملذاتها، وجعلت الشعوب تعيش في فقر مدقع، وانتهت الطبقة الوسطى وتكدس الفقراء الذين هجروا الريف في حزام عشوائي محيط بالمدن الكبيرة لدمشق وحلب في سورية، والقاهرة في مصر، وتكدس الفقراء في المقابر في القاهرة، وكذلك أصبحت معظم هذه الدول الديكتاتورية مستوردة لمعظم حاجاتها الغذائية من الخارج بعد أن كانت منتجة لها، وأصبحت معتمدة على القروض التي تأخذها من البنك الدولي في تدعيم اقتصادها، كما تدنت الخدمات العامة عن المستوى المطلوب في مجال الكهرباء والمياه والصرف الصحي، كما تدنّى المستوى التعليمي وازدادت الأمية تفشيًا.

٤ ـ رفض مشاريع السلام مع الكيان الصهيوني:

وقعت مصر أول معاهدة مع إسرائيل في كامب ديفيد عام ١٩٧٧، ثم وقعت منظمة التحرير فوقع ياسر عرفات اتفاقية أوسلو مع إسرائيل في حديقة البيت الأبيض في عام ١٩٩٣، ثم وقعت الأردن اتفاقية وادي عربة مع إسرائيل عام ١٩٩٤، وهي اتفاقيات تنهي الحرب بين هذه الدول وإسرائيل، وتقيم علاقات سلام وتعاون اقتصادي وثقافي وسياسي.

لكن الحقيقة التي صدمت إسرائيل والغرب هو أن هذه الاتفاقيات بقيت سارية بين الحكومات العربية وإسرائيل، أما الشعوب فقد حاربت هذه الاتفاقيات، وكان موقفها رافضًا لها، بدليل أنها حاربت كل صور التعاون مع إسرائيل على مدار العقود الماضية.

٥ ـ رفض مشاريع التغريب:

طرح الغرب في الفترة السابقة عدة مشاريع للتغريب، وكانت مرتبطة بقيم ومبادئ الحضارة الغربية وترويج الثقافة الغربية وتعليم اللغة الإنجليزية إلخ...، وكانت ترعاها المؤسسات والهيئات التابعة لمنظمة الأمم المتحدة مثل: اليونيسيف، اليونسكو، ومنظمات حقوق الطفل والمرأة إلخ...، وكانت تنفق عليها الدول الغربية والمنظمات المدنية في الدول الغربية.

ثم طرحت الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣ «مشروع الشرق الأوسط الجديد والفوضى الخلاقة» وذلك بعد أن وقع اعتداء على برجي التجارة في نيويورك عام ٢٠٠١، واستهدفت أمريكا بهذا المشروع دول منطقة الشرق الأوسط، واحتلت دولتي أفغانستان والعراق في عامي ٢٠٠١ و٢٠٠٣ من أجل هذا الهدف لكنها بدلًا من أن تقيم الديمقراطية دمرتهما، وبخاصة العراق، وأجرت تغييرًا جذريًا في العراق، فأقامت كيانه السياسي على المحاصصة الطائفية والعرقية، ولذلك أصبح العراق ـ الآن ـ مقسمًا إلى ثلاث دول، هي: دولة كردية في الشمال، دولة سنية في الوسط، ودولة شيعية في الجنوب.

وحمل «مشروع الشرق الأوسط الجديد» بالإضافة إلى الأحداث السياسية حمل ضمن طياته برامج متعددة لتعالج أمورًا مختلفة في العالم العربي، ومنها: تمكين المرأة، التدريب على الانتخابات وإنشاء الأحزاب، تعليم اللغة الإنجليزية إلخ...

وعندما قام الربيع العربي في عام ٢٠١١ كان أحد العوامل التي سببت انفجاره هو العداء لمشاريع التغريب، ومحاربتها، لأنها دمرت بلدانًا بكاملها، وأرادت فرض قيمها ومبادئها عليها.

ثانيًا: توصيف الربيع العربي

بماذا نصف الربيع العربي؟

نصف الربيع العربي بأنه «ثورة إسلامية» دون مبالغة، ويدل على ذلك عدة أمور، هي:

١ ـ جمهور «الربيع العربي» إسلامي:

من الجلي الواضح أن الجمهور الذي ثار في بلدان «الربيع العربي» هو «إسلامي» فهو قد خرج من المساجد أولًا، ثم تحول الجمهور العريض في بعض الدول كسورية إلى فصائل مسلحة، فكانت جميعها إسلامية جندًا وقيادة.

٢ ـ فوز «الإسلاميين» في جميع الانتخابات التي جرت في بعض بلدان «الربيع العربي»:

جرت انتخابات تشريعية ودستورية في بعض بلدان «الربيع العربي» كتونس والمغرب ومصر وليبيا، وفي معظم هذه البلدان فازت التجمعات والأحزاب الإسلامية كالنهضة في تونس، والعدالة والتنمية في المغرب، والإخوان المسلمين في مصر، وهذا يؤكد أن جمهور بلدان «الربيع العربي» إسلامي لذلك انتخب الأحزاب والتشكيلات الإسلامية في المجالس التشريعية والدستورية.

٣ ـ إحصاء د. عزمي بشارة لقيادات ثورة «٢٥ يناير» في مصر، وظهور أنها إسلامية:

أصدر «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» كتابًا تحت عنوان «ثورة مصر» في جزئين، حررهما د. عزمي بشارة وأجرى إحصاء في هذا الكتاب للقيادات الفاعلة في ساحة «ثورة ٢٥ يناير» منذ بدايتها حتى نهايتها يومًا بيوم، كما قام بتدوين دور كل شخص منهم، وحدّد اتجاهه الفكري، هل هو يساري أم قومي أم شيوعي أم إسلامي إلخ...، فكانت النتيجة أن أغلبية المشاركين في قيادة الثورة هم إسلاميون من مختلف الاتجاهات الموجودة على الساحة المصرية.

وأنا أعتقد أنه لو أجري مسح آخر على بقية الثورات بنفس الطريقة التي عمل عليها د. عزمي بشارة لثورة مصر، لانتهينا إلى نتائج مشابهة لما حدث في مصر.

٤ ـ الرد على د. عزمي بشارة وبرهان غليون في قولهما إن ثورات «الربيع العربي» هي ثورات ديمقراطية:

ذكر د. عزمي بشارة في أكثر من محاضرة ومقابلة أن ثورات «الربيع العربي» هي

«ثورات ديمقراطية» كذلك تحدث د. برهان غليون في كتابه «عطب الذات» عن ثورة سورية، وصف ثورة الربيع العربي في سورية بأنها «ثورة ديمقراطية».

وحتى نوضح مكمن الخطأ في وصف الدكتورين عزمي بشارة وبرهان غليون «ثورات الربيع العربي» بأنها ثورات ديمقراطية، لا بد من التمييز بين مفهومين للديمقراطية:

الأول: وهو مفهوم يربط الديمقراطية بالانتخابات، ومحاسبة الحكام، وإمكانية تغييرهم، وسؤالهم، وهو فهم عموم الجماهير العربية، وهذا ما يعتبر المنظرون للديمقراطية بأنه فهم ناقص، ولا يعتبرونه مقبولًا.

الثاني: وهو مفهوم الخواص، وهو الفهم الذي يضيف إلى المعاني السابقة مبادئ أخرى مثل: المبادئ فوق الدستورية، ونسبية الحقيقية، والعلمانية، والمادية، والحرية المطلقة إلخ...

وليس من شك أن الجمهور في «ثورات الربيع العربي» مع الفهم الأول، وهم الإسلاميون لذلك كانت الصدمة التي فجعت جمهور الإسلاميين عندما انقلب الغرب على محمد مرسي الذي فاز بانتخابات صحيحة وبالأغلبية بحجة أن «الأغلبية ليست هي الديمقراطية» بل لا بد من الأخذ بعين الاعتبار مبادئ أخرى.

ثالثًا: ما الشرارة التي فجرت «الربيع العربي» وجعلت وقوده يشتعل؟

الشرارة هي القرآن الكريم الذي دعا المسلم لمواجهة الطغيان من جهة، وإلى الإسلام الذي دعا المسلم إلى مواجهة الظلم من جهة ثانية.

فقد قال الله تعالى في القرآن الكريم مخاطبًا الرسول موسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]. وقال الله تعالى في موضع آخر مخاطبًا موسى وهارون فقال: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ ـ ٤٤].

أما الإسلام فقد دعت أحاديث الرسول ﷺ المسلم إلى مواجهة الظالم قال رسول الله

ﷺ: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، ورجلٌ قام إلى إمامٍ جَائِرٍ فأمرَهُ ونَهاهُ، فَقَتَلَهُ». رواه الحاكم ـ وصححه ـ والخطيب، وصححه الألباني.

وقد ولدت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ مسلمًا متحركًا في مواجهة الظلم والظالمين.

رابعًا: نجاحات وتعثرات في الربيع العربي:

لقد حقق «الربيع العربي» عدة نجاحات، لكنه تعثر في بعض البلدان، وأبرز نجاحاته هي:

١ ـ إزالة عدة دكتاتوريات:

لقد نجح الربيع العربي في إزالة عدة ديكتاتوريات من أعتى الديكتاتوريات، وأبرزها: ديكتاتورية القذافي الذي قتل في ٢٠ تشرين الأول من عام ٢٠١١، ديكتاتورية زين العابدين بن علي الذي هرب إثر ثورة ١٥ كانون الثاني (يناير) ٢٠١١، وحسني مبارك الذي أزاحته ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١.

٢ ـ لقد أعطى «الربيع العربي» فرصته للتغييرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل البلدان العربية، وبدأت جميع الحكومات تهتم بأوضاع الشعوب ومطالبها في كل الدول والمناطق.

لكن أبرز التعثرات، هي:

١ ـ بقاء بعض الحكام الدكتاتوريين في الحكم:

بقي بعض الحكام الدكتاتوريين في الحكم كبشار الأسد، لكن بقاءه لا يعود إلى قوته الخاصة، وإنما يعود إلى رضا إسرائيل عنه من جهة، ودعمه من قبل قوتين كبيرتين هما إيران وروسيا من جهة أخرى، فإيران تدخلت في نهاية عام ٢٠١٢، بكل ثقلها العسكري والمالي وتدخلت بحرسها الثوري وحزب الله وعشرات الميليشيات من أفغانستان وإيران والعراق، ودعمت النظام وأنقذته من السقوط نهاية عام ٢٠١٣.

كما تدخلت روسيا في نهاية أيلول من عام ٢٠١٥ بكل ثقلها العسكري وبشكل خاص طيرانها الحربي، وأنقذت نظام بشار الأسد من السقوط.

٢ ـ الانقلاب على الحكومات الشرعية:

لقد وقع انقلاب على الحكومة المصرية برئاسة محمد مرسي بتاريخ ٣ تموز (يوليو) ٢٠١٣ الذي انتخب رسميًا وشرعيًا في ٣٠ حزيران (يونيو) عام ٢٠١٢، وقد قام الجيش المصري بذلك وتم اعتقال محمد مرسي بعد ذلك، ثم توفى أثناء إحدى جلسات المحاكمة.

وقد قاد عبد الفتاح السيسي وزير الدفاع الانقلاب على محمد مرسي، دون أي سبب حقيقي سوى عدم رضا «الدولة العميقة» عن التوجهات الدينية التي يحملها محمد مرسي ومن معه من الإسلاميين الذين ساندوه في الوصول إلى الحكم بصورة شرعية بأدق التفاصيل الديمقراطية التي طرحوها على الشعب المصري.

وقد تكرر الأمر مع راشد الغنوشي في تونس، فقد عطل قيس سعيد رئيس الجمهورية التونسية البرلمان، كما أقال الوزارة، ووضع دستورًا جديدًا للبلاد، ثم اتهم عددًا من رموز الحركة الإسلامية بالتعاون مع الإرهابيين وحولهم للقضاء وأبرزهم راشد الغنوشي.

ومن الواضح أن قيس سعيد رئيس الجمهورية ماض في مخططه وهو اقتلاع كل المكاسب التي ولدها الربيع العربي لتونس، ومن الواضح أن كل هذا يتم بسكوت «الدولة العميقة» في تونس إن لم يتم بدعمها ومباركتها.

خامسًا: لماذا تعثر الربيع العربي؟

تعثر «الربيع العربي» في الدول العربية لعدة أسباب، هي:

١ ـ غياب المنهج والقيادة:

غاب «المنهج» الذي يحدد أهداف «ثورة الربيع» في كل بلد، ومراحلها، كما غاب عن «ثورات الربيع» القيادات الفاعلة التي تقود الجماهير، لذلك كانت الثورات عفوية في

انطلاقتها، وفي أهدافها، ومراحلها نتيجة غياب هذين الأمرين: المنهج والقيادة، لذلك لم تستطع أن تعطي نتائج كاملة بل أعطت بعض النتائج وأبرزها:

إزاحة بعض الحكام الديكتاتوريين أو زعزعة أنظمتهم، وزلزلة عروشهم.

٢ ـ خذلان «الدول الكبرى» لبعض الثورات:

لقد تأملت جماهير الثورات العربية بأن تقف الدول الكبرى إلى جانبها، لكن خذلت بعضها، ووقفت إلى جانب بعضها الآخر حسب مصالحها، وأبرز الثورات التي خذلتها هي «الثورة السورية»، وكان العامل الأكبر في بقاء نظام بشار الأسد هو رغبة إسرائيل وخشيتها من مجيء نظام يهدد وجودها.

لذلك يفترض ألا تضع الثورات في المستقبل أي أمل في مساعدة الدول الكبرى، بل تبني حساباتها على قوتها الذاتية.

٣ ـ عدم وعي دور «الدولة العميقة» في تخريب مسيرة الثورات:

لقد أحسنت الشعوب الظن بالجيوش العربية عندما ظنت أنها ستقف إلى جانبها في مواجهة الطغاة، لكنها صدمت عندما وقفت هذه الجيوش إلى جانب الطغاة، وإن عدم وعيها لدور «الدولة العميقة» هو الذي جعلها تعيش هذا الوهم، ثم تعيش الصدمة، فالحقيقة أن أمريكا تواصت بعد الحرب العالمية الثانية مع جيوش منطقة الشرق الأوسط، وربطتها بها بصورة من الصور وأمدتها بكل ما تحتاج من أجل أن تستحوذ عليها، وتملك قيادتها، وهذا ما جعلها مطواعة، في يدها، واستخدمتها على عكس ما أرادت الجماهير.

٤ ـ محاربة «مشروع ملالي إيران» للربيع العربي:

لقد حارب «مشروع ملالي إيران» الربيع العربي، ولم يكن موقفه إيجابيًا منه، وبشكل أخص في سورية، فأمد بشار الأسد حاكم سورية بكل أنواع الدعم العسكري والاستخباراتي واللوجستي والمالي منذ اللحظة الأولى، وأمر حزب الله بالتدخل

لصالح نظام بشار في نهاية عام ٢٠١٢ عندما اقترب نظام بشار من السقوط، ثم شكل كتائب وميليشيات متعددة لدعم النظام، منها: عصائب أهل الحق، الزينبيون، الفاطميون...

٥ ـ عدم صحة القول بأن «العسكرة» و«الأدلجة» هي سبب تعثر «الربيع العربي» في سورية:

تحدث بعض الكتاب والمفكرين عن أن «العسكرة» و«الأدلجة» هي سبب تعثر «الربيع العربي» في سورية، والحقيقة أن هذا الكلام غير صحيح، فإن «العسكرة» في سورية قد جاءت رد فعل على بطش النظام، وتنكيله بالجماهير المليونية التي خرجت في كل محافظات سورية: حمص وحماة ودمشق ودير الزور ودرعا إلخ...

ولم يكتف النظام الأسدي في استخدام قواته العسكرية للبطش بالجماهير والتنكيل بها فقط، بل استعان بقوات الحرس الثوري الإيراني ومليشيات شيعية من مختلف أنحاء العالم لمساندته في هذا البطش، واستعان مع ذلك بالقوات الروسية، لذلك فقد كان الوضع الطبيعي أن يتجه الشعب السوري إلى تشكيل كتائب عسكرية للدفاع عن نفسه، ومواجهة هذه الجيوش الجرارة قدر الإمكان.

أما بالنسبة «للأدلجة» فهذا الكلام غير صحيح، «فالإسلام» بالنسبة للشعب السوري هو المكون الرئيسي في كل تفصيلات حياته، فهو الثقافة وهو الهواء وهو الغذاء، وهو الدواء وهو منبع الصمود، لذلك فهو ليس «أيديولوجيا» بعيدة، بل هو القوة التي حمت الشعب من الرضوخ للاستبداد، وجعلته يصمد أمام كل وسائل التطويع والتجويع والإذلال والتركيع، ويخرج منتصرًا مواجهًا، فهو في هذه المرحلة ليس «أيديولوجيا» لكنه سيصبح «أيديولوجيا» في مرحلة قادمة بإذن الله.

***

الفصل السابع

الصورة الثانية من التغريب

تطويع النص القرآني لصالح الحضارة الغربية

مدخل إلى الصورة الثالثة من التغريب:

اجتهد الغرب أن يؤثر فينا من خلال تطويع النص القرآني لصالح مبادئ الحضارة الغربية وقيمها. وكان الغرب قد واجه هذه المشكلة مع النص المسيحي في الإنجيل، واليهودي في التوراة، فابتكر علومًا متعددة من أجل تطويع وتأويل تلك النصوص، منها: علوم السوسيولوجيا[١]، وعلوم السيميائيات[٢]، وعلوم الانثروبولوجيا[٣] إلخ...، ثم طبق هذه العلوم على قراءة النص القرآني، فكانت هناك ثلاث قراءات حداثية للنص القرآني وهي: الأرخنة، والعقلنة، والأنسنة.

ونحن سنوضح هذه الصورة الثانية من التغريب من خلال ثلاثة مباحث، هي:

المبحث الأول: القراءات الحداثية، أنواعها، آلياتها، نتائجها.

المبحث الثاني: الكاتب الحداثي الدكتور محمد عابد الجابري.

المبحث الثالث: الكاتب الحداثي الدكتور محمد شحرور.

---

(١) علم السوسيولوجيا: هو علم الاجتماع، وهو علم يركز على المجتمع والسلوك الاجتماعي وأنماط العلاقات الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي وثقافة الحياة اليومية، ابتدعه أوغست كونت ١٨٣٩، وقد أولاه بعده أميل دوركهايم أهميةً بالغةً وعمل على تأسيسه كتواجد معرفي.

(٢) السيميائيات: هو علم العلاقات والإشارة أو الدلائل اللغوية أو الرمزية سواء أكانت طبيعية أم اصطناعية.

(٣) الأنثروبولوجيا: علم يعنى بدراسة البشر بماضيهم وحاضرهم ليفهم الكيانات الهائلة والمعقدة من الثقافات عبر التاريخ، وتتحرك الأنثروبولوجيا على القواعد المعرفية التي تقوم عليها العلوم البيولوجية والاجتماعية، وهناك عدة أقسام لعلم الأنثروبولوجيا منها: الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية إلخ.

المبحث الأول

القراءات الحداثية: أنواعها، آلياتها، نتائجها[١]

يمكن أن نحصر القراءات الحداثية للنص الإسلامي (القرآن الكريم والسنة المشرفة) في ثلاث قراءات وهي: «خطة التأريخ أو الأرخنة»، و«خطة التعقيل أو العقلنة»، و«خطة التأنيس أو الأنسنة»، وتقصد قراءة «الأرخنة» رفع عائق أزلية الأحكام وثباتها، وتقصد قراءة «العقلنة» رفع عائق الغيب، وتقصد قراءة «الأنسنة» رفع عائق القدسية، ويتم رفع العوائق المذكورة من خلال آليات محددة لكل قراءة، ثم الوصول إلى نتائج محددة في كل قراءة، ثم تكون النهاية إلى أن القرآن الكريم والسنة المشرفة نص تاريخي عقلاني لغوي، يخضع كأي نص تاريخي ديني أو وثني إلى المحاكمات التاريخية والعقلية واللغوية. ولنبدأ باستعراض كل قراءة وآلياتها ونتائجها على حدة.

أولًا: خطة التأريخ أو الأرخنة

تستهدف خطة التأريخ أو (الأرخنة) رفع الحُكمية (بضم الحاء)، ويتمثّل هذا العائق في الاعتقاد بأنّ القرآن جاء بأحكام ثابتة وأزلية، وآلية هذه الخطة في إزالة هذا العائق هي وصل الآيات بظروف بيئتها وزمنها وبسياقاتها المختلفة، ويتم هذا الوصل بواسطة عمليات منهجية خاصة نورد منها ما يلي:

١ ـ توظيف المسائل التاريخية المسَلّم بها في تفسير القرآن: فهناك مسائل اشتغل بها قدماء المفسّرين تكشف عن دخول التاريخية على آيات الأحكام، وهي مسألة أسباب

(١) يمكن التوسع في فهم القراءات ووقائع التطورات بالعودة إلى كتاب «دليل المسلم الحزين في القرن العشرين» لحسين أحمد أمين، وكتاب «شرود ما بعد الدهرانية ـ النقد الائتماني للخروج من الأخلاق» لطه عبد الرحمن، وكتاب «دوائر الخوف ـ قراءة في خطاب المرأة» لنصر حامد أبو زيد، وتجدر الإشارة إلى جهود الدكتور طه عبد الرحمن الكبيرة في متابعة هذه القراءات، والتي رصدت جانبًا منها في هذا المبحث.

النـزول ومسألة الناسخ والمنسوخ ومسألة المُحكَم والمتشابه ومسألة المكي والمدني ومسألة التنجيم، فلقد وجد أهل القراءة الحداثية في هذه المسائل أدلة واضحة وأسبابًا قوية لتعميق الوعي بالبُعد التاريخي الجدلي للآيات القرآنية وتحصيل المشروعية لممارسة النقد التاريخي على هذه الآيات، متجاوزين الحدود التي وقف عندها المفسرون والفقهاء، بل مبرزين تناقضات هؤلاء في الإقرار بوجود التاريخية والقول بوجوب الأزلية، ومن ذلك قولهم إن حد السرقة الذي ورد في قوله جل جلاله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، جاء مرتبطًا بالبيئة البدوية، فقد كانت ثروة البدوي المتنقل محمولة على الجمل، وعندما تتم السرقة فإن البدوي المسروق كان يخسر كل ثروته، ولذلك كان الحكم بكل هذه القسوة، في حين أن الشخص المعاصر لا يخسر كل ثروته بل الثروة موضوعة في البنك أو متجسدة في ممتلكات عينية كالقصر والمصنع إلخ...، ولذلك إذا تم سرقة شيء فإن المسروق لا يشكل إلا جزءًا يسيرًا من ثروة المسروق، لذلك فإن العقوبة يجب أن لا تكون بهذه لقسوة. هذا ما يقوله الحداثيون الذين يقولون بأرخنة الأحكام.

٢ ـ **تغميض مفهوم الحكم**: يفصل الحداثي بين الحكم وبين القاعدة القانونية، فإذا كانت هذه القاعدة عبارة عن أمر صريح باتباع سلوك مضبوط في ظروف معيّنة تؤدي مخالفته إلى إنزال عقاب مخصوص بمخالفه، فإنّ الحكم الذي تتضمنه الآية القرآنية ليس كذلك، فإنه قد يأتي تارة بصيغة الأمر وتارة بصيغة الخبر، فلا نعرف على وجه اليقين مضمونه التشريعي، كما قد يتردّد بين أن يكون قرارًا عامًا وأن يكون قرارًا خاصًا، وبين أن يكون قرارًا منسوخًا، كل ذلك يؤدي إلى اختلاف شديد في القيمة التشريعية لآيات الأحكام وصفتها الإلزامية، مثل ما جاء في تحريم الخمر قوله جل جلاله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، جاء الحكم بصيغة الاستفهام الذي يحض على ذلك، فاعتبروا أن تلك

الصيغة ليس فيها تحريم للخمر، بل فيها حض على التوقف عن شرب الخمر، وتحبيب في ترك الخمر.

٣ ـ تقليل عدد آيات الأحكام: تمثل آيات الأحكام نسبة محدودة من جملة الآيات القرآنية، تبقى متأثّرة بالأحوال والظروف الخاصة التي نزلت فيها، حتى إنّ أكثرها عندهم قد نُسخ، وبعضها تجاوزه التاريخ بغير رجعة، لذلك دعوا إلى الاقتصار على أقل عدد ممكن من هذه الآيات قد لا يتعدّى الثمانين آية، نظرًا لما يمكن أن يحمله المستقبل من أسباب التجاوز لهذه الآيات.

٤ ـ إضفاء النسبية على آيات الأحكام: يقرر الحداثي أنّ آيات الأحكام لا تحيل على أسباب نزولها، متعلّقة معانيها بهذه الأسباب فحسب، بل إنها تحيل أيضًا على تاريخ تفسيراتها المتعدّدة، فقد فهم المفسرون والفقهاء هذه الآيات فهومًا اختلفت باختلاف مشاغلهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في سياق الظروف التاريخية المتقلّبة للمجتمع الإسلامي.

٥ ـ تعميم الصفة التاريخية على العقيدة: لا تدخل التاريخية على آيات الحدود والقصاص والمعاملات فقط، بل تدخل أيضًا على آيات العبادات، ذلك أنّ العقائد التي جاءت بها هذه الآيات تكون، بحسبهم، تابعة لمستوى المعرفة في العصر الذي نزلت فيه، وحينئذ، يكون القرآن قد اعتمد تصوّرات مرتبطة بدرجة الوعي لدى أولئك الذين توجّه إليهم خطابه، تصوّرات يكون بعضها عبارة عن تصوّرات أسطورية.

يرى الحداثي أن القرآن الكريم مجرّد نصوص تاريخية مثله مثل أيّ نصوص تاريخية أخرى، وتترتب على هذه المماثلة التأريخية النتائج التالية:

١ ـ إبطال المُسَلَّمة القائلة بأنّ القرآن فيه بيان كل شيء: يرى الحداثي أن عدد آيات الأحكام ضئيل جدًا بالمقارنة بغيرها، فإنّ كثيرًا منها جاء خاصًّا أو مقيّدًا، إذ ارتبط بأشخاص

أو بحوادث أو بأحوال أو بظروف يؤدي ذهابها إلى إسقاط العمل به، أمّا الأحكام التي يستنبطها الفقهاء من النص القرآني، ولما كانت اجتهادات بشرية مضافة إلى ما جاء فيه، فقد دلّت هذه الإضافة على أنّ النص القرآني لا يتضمّن تمام التشريع الإسلامي، وأمّا الآية التي يستشهد بها عادة في هذا الصدد، وهي الآية الكريمة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فلا تدلّ عند الحداثيين على تمام التشريع، وإنما تدلّ على تمام التنزيل.

٢ ـ آيات الأحكام توجيهات لا إلزام معها: يرى الحداثي أن آيات الأحكام توصيات لا قوانين، يستعين بها المسلم في حل المشاكل التي تعترض سبيله أثناء ممارسته لحياته الاجتماعية، لا سيما في تدبيره لأسرته، وكذا أثناء قيامه ببعض المعاملات الاقتصادية، ولم يستثن الحداثيون من هذه الآيات إلا واحدة يعدونها ذات مدلول قانوني مدني، وهي «آية الربا» ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

٣ ـ حصر القرآن في أخلاقيات الفرد الخاصة: يرى الحداثي أن آيات الأحكام مواعظ وإرشادات موجّهة بالأساس إلى ضمائر المسلمين، تحثّهم على مراعاة علاقتهم بخالقهم والسلوك، والشاهد على ذلك افتتاح التوجيهات القرآنية بعبارة «يا أيها الذين آمنوا» وتذييلها بعبارة «إن كنتم مؤمنين» أو «إن كنتم صادقين»، فضلًا عن أنّ كثيرًا من آيات الأحكام لا تنص إلا على الجزاء الأخروي، وحتى تلك التي نصّت على الجزاء الدنيوي مثل الحدود، فإنها فتحت باب التوبة.

٤ ـ الدعوة إلى تحديث التديّن: تدعو الحاجة عند الحداثي أن تستخلص من النص القرآني تديّنًا ينسجم مع فلسفة الحداثة، فلا تكون فيه قسرية ظاهرة تحدّ من حرية الأفراد، ولا تكون فيه شعائرية طاغية تضيق على سلوكياتهم، ولا أساطير غابرة لا تطيقها عقولهم،

أي في نهاية المطاف، تديّنًا يقوم على الإيمان الفردي ويختار فيه صاحبه نمط تعبّده في دائرة حياته الخاصة، ويدعو الحداثي إلى التخلص من أشكال التديّن الموروثة، فينهض بمقتضى التحديث.

ثانيًا: خطة التعقيل أو العقلنة

تستهدف خطة التعقيل أو العقلنة رفع عائق الغيبية، ويتمثّل هذا العائق في الاعتقاد بأنّ القرآن وحي ورد من عالم الغيب، وآلية هذه الخطة في إزالة هذا العائق هي التعامل مع الآيات القرآنية بكل وسائل النظر التي توفّرها المنهجيات والنظريات الحديثة، ويتمّ هذا التعامل بواسطة عمليات منهجية خاصة نذكر منها:

١ ـ نقد علوم القرآن: ينقد الحداثي علوم القرآن على أساس أنّ هذه العلوم النقلية أصبحت تشكّل وسائط معرفية متحجّرة تصرفنا عن الرجوع إلى النص القرآني ذاته كما أنها تحول دون أن نقرأ هذا النص قراءة تأخذ بأسباب النظر العقلي الصريح.

٢ ـ التوسل بالمناهج المقرّرة في علوم الأديان: ينقل الحداثي مناهج علوم الأديان التي اتبعت في تحليل ونقد التوراة والأناجيل إلى مجال الدراسات القرآنية، مثل علم مقارنة الأديان وعلم تاريخ الأديان وتاريخ التفسير وتاريخ اللاهوت.

٣ ـ التوسل بالمناهج المقرّرة في علوم الإنسان والمجتمع: ينزل الحداثي مختلف مناهج علوم الإنسان والمجتمع على النص القرآني، لا سيما اللسانيات[١]، والسيميائيات[٢]، وعلم التاريخ وعلم الاجتماع إلخ...

٤ ـ استخدام كل النظريات النقدية والفلسفية المستحدثة: يستعين الحداثي بكل النظريات النقدية التي تسارع ظهورها في الساحة الأدبية والفكرية في النصف الثاني من

---

(١) **اللسانيات**: هو علم مهتم بدراسة اللغات الإنسانية ودراسة خصائصها وتراكيبها ودرجات التشابه فيما بينها.

(٢) السيميائيات: هو علم العلامات والإشارات أو الدلائل اللغوية أو الرمزية سواء أكانت طبيعية أم اصطناعية.

القرن الماضي، متمثّلة في الهرمنيوطيقا[١] والتفكيكية[٢] ـ الاتجاهات الجديدة في النقد الأدبي وتحليل الخطاب.

٥ ـ إطلاق سلطة العقل: يطلق الحداثي عقله ويرى أن لا آية قرآنية تمتنع على اجتهاد العقل، بل لا توجد حدود مرسومة يقف العقل عندها ولا آفاق مخصوصة لا يمكن أن يستطلعها.

من الواضح أن تطبيق هذه العمليات المنهجية التعقيلية سيؤدي إلى جعل القرآن نصًّا دينيًا مثله مثل أيّ نص آخر، توحيديًا كان أم وثنيًا، ويمكن أن نحصر نتائج خطة العقلنة بالأمور التالية:

١ ـ تغيير مفهوم الوحي: يرى الحداثي أنّ مفهوم «الوحي» المتداول والموروث عن التصوّر الديني التقليدي لم يعد من الممكن قبوله، وينبغي أن نستبدل به مفهومًا تأويليًا يسوغه العقل، صارفًا عن الوحي ما لا يعقل من الأساطير والطقوس التي تقترن به، مكتفيًا بجانبه المعنوي.

٢ ـ عدم اتساق النص القرآني: يرى الحداثي أنّ سور القرآن وآياته وموضوعاته وردت بترتيب يخلو من الاتساق المنطقي كما يخلو من الاتساق التاريخي.

٣ ـ غلبة الاستعارة في النص القرآني: يلاحظ الحداثي أنّ المجازات والاستعارات تطغى في النص القرآني على الأدلّة والبراهين، ويستنتج من ذلك أنّ العقل الذي ينبني عليه هذا النص هو أقرب إلى العقل القصصي الأسطوري منه إلى العقل الاستدلالي المنطقي، نظرًا إلى أنّ إدراكاته العقلية لا تنفصل عن الخيال والوجدان.

---

(١) **الهرمنيوطيقا** أو فلسفة التأويل: منهجية غربية تستهدف تأويل النص الديني، وطبقت في أوروبا على الكتاب المقدس.

(٢) **التفكيكية**: تقوم التفكيكية على أساس قراءة النصوص وعلى اعتبار التفكيكية مدرسة تقويض الحداثة، وتشكك بكل ما تقوم عليه الأفكار والسرديات الكبرى.

٤ ـ تجاوز الآيات المصادمة للعقل: يقرّر الحداثي أنّ كل ما يصادم العقل في النص القرآني من حقائق أو وقائع لا يعدو كونه شواهد تاريخية على طور من أطوار الوعي الإنساني تمّ الآن تجاوزه.

ثالثًا: خطة التأنيس أو الأنسنة

تستهدف خطة التأنيس أو الأنسنة رفع عائق القدسية، ويتمثل هذا العائق في الاعتقاد بأنّ القرآن الكريم كلام مقدّس، وآلية هذه الخطة في إزالة هذا العائق هي نقل الآيات القرآنية من الوضع الإلهي إلى الوضع البشري، ويتمّ هذا النقل إلى الوضع البشري بواسطة عمليات منهجية خاصة، نذكر منها ما يلي:

١ ـ حذف عبارات التعظيم: يرى الحداثي أن تحذف العبارات التي يستعملها جمهور المؤمنين في تعظيمهم لكتاب الله مثل «القرآن الكريم» أو «القرآن العزيز» أو «القرآن الحكيم» أو «القرآن المبين» أو «الآية الكريمة» أو «قال الله تعالى».

٢ ـ استبدال مصطلحات جديدة بأخرى مقررة: يعمد القارئ الحداثي إلى استعمال مصطلحات يضعها من عنده مكان مصطلحات متداولة كأن يستعمل مصطلح «الخطاب النبوي» مكان مصطلح «الخطاب الإلهي»، ومصطلح «الظاهرة القرآنية» أو «الواقعة القرآنية» مكان مصطلح «نزول القرآن».

٣ ـ التسوية في رتبة الاستشهاد بالقول: يقوم الحداثي بإنزال الأقوال البشرية منـزلة الآيات القرآنية في الاستشهاد، كأن يصدّر فصول كتبه بآيات قرآنية مقرونة بأقوال لدارسين من غير المسلمين، بل غير مؤمنين.

٤ ـ التفريق بين مستويات مختلفة في الخطاب الإلهي: يفرق الحداثي بين الوحي والتنزيل، ويفرّق بين القرآن الشفوي والقرآن المكتوب.

٥ ـ المقارنة بين القرآن والنبي عيسىعليه السلام: يرى الحداثي أنه كما أنّ كلمة

الله تجسّدت في عيسى بن مريم، فكذلك كلام الله تجسّد في القرآن، وعلى هذا، فلمّا كان المسلمون ينفون عن السيد المسيح عليه السلام الطبيعة الإلهية ويثبتون له الطبيعة الإنسانية، فقد وجب عليهم، حسب ظن الحداثي، أن ينفوا عن القرآن الطبيعة الإلهية ويثبتوا له الطبيعة البشرية.

والحال أنّ تطبيق مثل هذه العمليات المنهجية التأسيسية يؤدّي إلى جعل القرآن نصًّا لغويًا مثله مثل أيّ نص بشري، وتترتب على هذه المماثلة اللغوية النتائج التالية:

١ ـ السياق الثقافي للنص القرآني: فالنص القرآني عبارة عن نص تم إنتاجه وفقًا لقوانين الثقافة التي تنتمي إليها لغته، ولا يمكن أن يُفهم أو يُفسّر إلا بالرجوع إلى نظام هذه الثقافة، فإذا تغيرت هذه الثقافة مع مرور الزمن فيمكن أن يتغير فهم القرآن الكريم حسب الثقافة الجديدة.

٢ ـ الوضع الإشكالي للنص القرآني: من المعلوم أنّ النص القرآني نص إجمالي وإشكالي ينفتح على احتمالات متعدّدة ويقبل تأويلات غير متناهية، ولا ميزة لتأويلٍ على غيره، فضلًا عن أن يدعي أحدها حيازة الحقيقة أو الانفراد بها.

٣ ـ استقلال النص القرآني عن مصدره: ينفصل النص القرآني عن مصدره المتعالي ويرتبط كليًا بالقارئ الإنساني، لذلك فلا يقين في إدراك المقاصد الحقيقية للمتكلّم المتعالي، ولا داعي إلى طلب المدلول الأصلي لكلامه، وكل ما يقتنصه القارئ من النص القرآني إنما هو حصيلة الاستنطاق الذي يمارسه عليه من خلال مرجعيته الثقافية وخلفيته المعرفية ووضعيته الاجتماعية والسياسية.

٤ ـ عدم اكتمال النص القرآني: النص القرآني غير مكتمل، إذ إنه لا يرفع احتمال وجود نقص فيه يتمثّل في حذف كلام منسوب إلى المصدر الإلهي، كما لا يرفع احتمال وجود زيادة فيه تتمثّل في إضافة كلام منسوب إلى مصدر غير إلهي.

المبحث الثاني

الكاتب الحداثي محمد عابد الجابري

ولد الجابري عام ١٩٣٧، وتوفي عام ٢٠١٠، وقد قام بعدة أمور ذات قيمة كبيرة هي دراسته عن العقل العربي، في أربعة مجلدات، ثم تفسيره للقرآن الكريم، وتأليفه عدة كتب عن الدين الإسلامي وتطبيق الشريعة وغيرها.

وقد كان حديثه عن العقل العربي في أربعة كتب حملت العناوين التالية:

* تكوين العقل العربي.

* بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية

* العقل السياسي العربي.

* العقل الأخلاقي العربي.

وقد قام الجابري في حديثه عن العقل العربي بتوضيح تأثيرات ثقافات الشعوب التي احتك المسلمون بها: كالفرس واليونان والهنود والرومان إلخ...

فألف أربعة كتب عن القرآن الكريم، أولها حمل عنوان:

«مدخل إلى القرآن الكريم في التعريف بالقرآن».

ثم أتبعه بثلاثة كتب في تفسير سور وآيات القرآن الكريم حملت عنوان:

«فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول»، تناول في المدخل والتفسير عددًا كبيرًا من القضايا المتعلقة بالدين الإسلامي وعلومه.

وكتب كتبًا أخرى مرتبطة بالدين منها: الدين وتطبيق الشريعة، محنة أحمد بن حنبل إلخ...

ومن الجدير بالذكر أن الجابري لم يأخذ بكتب الأحاديث التي دونها المحدثون

كالبخاري ومسلم وأحمد بن حنبل ومالك إلخ...، لأنه اعتبر أن هذه الأحاديث المدونة كانت انعكاسًا للتجاذبات السياسية والقبلية التي كانت تملأ الساحة السياسية في مختلف عصور الإسلام وشكك في مصداقيتها، ولذلك لم يأخذ بها.

ملاحظات حول كتب الجابري عن العقل العربي:

١ ـ لقد حلل الجابري العقل العربي فوجد أنه تصارعت على تسييره وتشكيله ثلاثة أنظمة معرفية هي: النظام المعرفي البياني، والنظام المعرفي العرفاني، والنظام المعرفي البرهاني، واعتبر أن العقل البياني هو الذي ساد العقل العربي، واعتمد العقل البياني «اللغة العربية» مرجعية له، واعتبر الجابري أن العقل البياني أفرز مبدأين عقليين هما: الانفصال والتجويز[1].

وقد رددت عليه في مقال نشرته سابقًا فوضحت أن المعتزلة هم الذين اعتمدوا «اللغة العربية» مرجعية لهم، وهم الذين شكلوا «العقل البياني» وأنه لا يمثل «الأمة الإسلامية»، بل «القرآن الكريم» هو الذي كان مرجعية «العقل الإسلامي» وكان هو

(١) الانفصال والتجويز، هما صفتان لـ«العقل البياني»، كما ذكر محمد عابد الجابري، وهما صفتا العقل المستقبل، أيضًا يعني به العقل العرفاني، أي الصوفي الخرافي.

أما الانفصال فيعني أن كل الأجسام والكائنات المحيطة بالعربي البدوي في صحرائه أجسام متباعدة كذرات الرمال التي يمشي عليها، فهي متجاورة وليست متصلة، وهو يريد أن يصل إلى أن العلاقة بينها ليست علاقة سببية، أي سبب ونتيجة، بل علاقة في مجاورة و«انفصال».

إن التجويز الذي يرى الجابري أنه صفة من «صفات العقل البياني» أي «العقل المستقبل = العقل الصوفي الخرافي»، فيعني عنده أنّ الأسباب يجوز أن تعمل أولا تعمل، فهذا «العقل البياني = الصوفي الخرافي»، يقرر أن النار كسبب يجوز أن تحرق أو لا تحرق، كما حدث مع النبي إبراهيم عليه السلام عندما ألقاه الكفار في النار، ولم تحرقه النار بسبب مشيئة الله سبحانه وتعالى.

وعندما يقول أصحاب «العقل البياني = العرفاني» بهذا القول «التجويزي» يهدفون أن يردوا على الفلاسفة الذين يقولون بـ«قدم العالم»، وبأن الأسباب هي التي تحرك الكون، وبالتالي ينكرون وجود الله والعياذ بالله.

«العقـل المكوِّن» للعقل الإسـلامي، وقام هـذا العقل على مبدأين: «الاتصال والسـببية»[١].

٢ ـ أما فيما يتعلق بالعقل السياسي فقد اعتبر الجابري أن ثلاثة مرتكزات قام عليها العقل السياسي العربي، هي: «العقيدة، الغنيمة، القبيلة»، وقد اعتبر الجابري أن القبيلة ما زالت فاعلة، ودلل على ذلك بانحياز بعض المسلمين إلى قبائلهم أثناء الصراع الذي حدث بين معاوية وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ليس من شك بأن القبيلة بقيت موجودة تطل برأسها بين حين لآخر، وأكبر دليل على ذلك القبائل المرتدة التي تمردت على خلافة أبي بكر الصديق، لكن الإسلام عندما طرح «الأخوة الإيمانية» مكان «الرابطة القبلية» نجح مع معظم المسلمين، لكنه من المؤكد سيفشل مع بعضهم، لذلك كانت العصبية القبلية تطل برأسها بين حين وآخر في بعض المعارك وبعض المواقف.

وأنا أعتقد على العكس من ذلك بأن الدين الإسلامي هو الديانة الوحيدة التي استطاعت أن تمزج مختلف القبائل والأجناس والأعراق في بوتقة واحدة وتخرج منها «أمة واحدة» هي «الأمة الإسلامية» والتي أخذ كل أفرادها حظوظًا متساوية في مجال الأعمال العلمية واختراع العلوم وفي مجال قيادة الجيوش، وفي مجال المواقع السياسية، وفي مجال المناصب الإدارية، وفي مجال الأعمال الاقتصادية إلخ...

أما الغنيمة فلو أن الغنيمة كانت مرتكزًا أساسيًا في العقل السياسي العربي لما طرح

---

(١) الاتصال والسببية: هما صفتا «العقل البرهاني» كما ذكر محمد عابد الجابري، وأرى أنهما أيضًا صفتا «العقل الإسلامي»، الذي صاغة القرآن الكريم.

أما الاتصال فهو يعني أن الجزئيات متداخلة وتشكل أجسامًا، فهي متصلة من أجل تشكيل كتلة، وليست ذرات متباعدة.

وأما السببية فيعني أن الأسباب تعمل وتؤثر، وأن عملها مؤكد وحتمي، فالنار تحرق، والسكين تقطع، وهذا دليل على عظمة الله سبحانه وتعالى وتدبيره للكون سبحانه وتعالى، وهو دليل أقوى على وجود الله وربوبيته سبحانه وتعالى في الرد على الفلاسفة من القول بـ «التجويز».

الإسلام أمام الشعوب ثلاثة خيارات هي: «الإسلام أو الجزية أو القتال»، ولطرح القتال خيارًا وحيدًا، كما فعلت الدول الأخرى التي كانت تقاتل الآخرين كالإمبراطورية الرومانية أو الفارسية إلخ...

٣ ـ وقد طرح الجابري في كتاب «العقل الأخلاقي العربي» أن العقل الأخلاقي العربي قد تأثر بالموروث الفارسي الذي يقوم على أن الدين طاعة رجل، والذي أبرزه «عهد أردشير» الذي وضعه أردشير لأولاده كي يعرفهم بكيفية قيادة الشعوب، وكيفية التعامل معهم، ودلل الجابري على صحة رأيه بالرجوع إلى كتب الأدب التي قدمت أبواب السلطان والجاه على غيرها من الأبواب، وقد رددت على مقولته تلك، وبينت أنه من الممكن أن يكون بعض الخلفاء مع بعض عناصر حاشيتهم أحبوا أن يروجوا ذلك الموروث بقصد تطويع المسلمين، ولكن ما الذي يدل على رسوخ وقبول تلك الثقافة، هل كتب الأدب أم كتب الفقه؟ أنا رجحت كتب الفقه؛ لأنها أصدق في التعبير عن الواقع الاجتماعي للمسلمين، وبينت أن كتب الفقه مملوءة بمشروعية الخروج على الحاكم الظالم، وبمشروعية الخروج على الحاكم بتأويل، وباعتبار البغي ليس اسم ذم في الفقه الشافعي، وأنه لا يجوز للمسلم أن يعين الحاكم على أخيه المسلم الذي خرج على الحاكم لاسترجاع مظلمته من الحاكم.

وتحدث الجابري عن القيمة الأخلاقية المركزية التي دعا إليها الموروث اليوناني فكانت السعادة، وعن القيمة الأخلاقية المركزية التي دعا إليها الموروث الفارسي فكانت «الطاعة للحاكم»، وعن القيمة الأخلاقية المركزية التي دعا إليه الموروث العربي في الجاهلية فكانت «المروءة» والتي تجسدت بحركات «الفتوة».

وذكر الجابري أنه لم يهتد إلى «القيمة الأخلاقية المركزية» في القرآن الكريم إلا بعد أن اطلع على كتابات العز بن عبد السلام (ت ٦٦٠ هجرية) وهي: «العمل

الصالـح»، لكنـه رأى أن هنـاك نقصًـا فـي مشـروع أخلاق القـرآن عنـد العز بن عبد السـلام عندمـا لـم يتعـرض للسياسـة، لكنـه رأى ابـن تيميـة قد اسـتدرك هـذا النقص عندمـا وضع رسـالة «السياسـة الشـرعية في إصلاح الراعـي والرعية»، ثـم وضع الجابـري عنوانًا للفصل الثالـث والعشـرين مـن كتـاب «العقل الأخلاقـي العربـي» وهو: «فـي الإسـلام: المصلحة أسـاس الأخـلاق والسياسـة»، ثم قـال في الفقـرة السادسـة من الفصـل السـابق: «تلك هي أخـلاق العمـل الصالـح» أو «أخـلاق المصلحة».

ومن الملاحظ أن الجابري في أكثر من مكان في كتابه ساوى بين العمل الصالح والمصلحة، وهو غير مصيب في هذه التسوية، وقد وضحت ذلك بالتفصيل في المقال الذي نشرته تعقيبًا وردًّا على الكتاب، وقد وضعته في كتابي «آراء ورؤى معاصرة».

ومما قلته في ذلك المقال: فلو أخذنا أي عمل صالح يعتبره الشرع عملًا صالحًا لرأينا أنه يجب أن تتحقق فيه عدة شروط منها: أن يكون قد حلله الإسلام، ويجب أن تتجه النية فيه إلى الله، ويجب أن يلتزم قواعد الشريعة إلخ...، فالبيع والشراء فيه مصلحة للمسلم، لكن هناك أنواع من البيع والشراء محرمة، فلا يجوز أن يبيع الخمر مثلًا، ولا يجوز أن يتعامل بالربا في بيع أو شراء.

من الواضح أن الجابري ساوى بين المفهومين: العمل الصالح والمصلحة، وهو في هذا ابتعد عن الصواب، والسؤال الآن: لماذا أقدم الجابري على هذه الخطوة وساوى بين هذين المفهومين؟

على الأرجح أنه أقدم على هذا لكي يسهل استيعاب معطيات الحضارة الغربية لدى جماهير الأمة في وقتنا الحاضر، فإن وجود مصلحة وفائدة في أي عمل عنصر أساسي في المبادئ التي تقوم عليها الحضارة الغربية.

والحقيقة أن القيمة المركزية في أخلاق القرآن الكريم هي العبودية.

ملاحظات حول تفسير الجابري للقرآن الكريم:

كتب الجابري مدخلًا لتفسير القرآن، ثم فسر القرآن الكريم حسب نزول السور، وعلل ذلك بأنه أراد أن يطابق بين مسار الدعوة ومسيرة التنزيل، وأنه رسم قاعدة لنفسه أن يدرس التراث معاصرًا لوقته ومعاصرًا لنا، ووصل إلى نتيجتين خاطئتين في رأيي:

١ ـ أن التوحيد كان منتشرًا قبل مجيء الرسول ﷺ، فقد كان التوحيد منتشرًا في الجزيرة العربية في ظاهرة الحنفاء، وكان منتشرًا في مصر في أتباع أريوس، وكان منتشرًا في العراق من خلال الأبيونيين، وكان موجودًا في الحبشة إلخ...، وقد كان دور الرسول ﷺ هو تجميع هؤلاء الموحدين، وكان القرآن انعكاسًا لأفكار هؤلاء الموحدين، وبهذا يلتقي الجابري مع طه حسين في دعواه أن القرآن الكريم انعكاس للبيئة الجاهلية، وليس من شك بأن هذه الدعوى باطلة.

٢ ـ وقد توصل الجابري من خلال جعله القرآن معاصرًا لنا إلى الدعوى بأن تقوم مصالحة بين حفدة إبراهيم وأبنائه حسب زعمه. ونحن نقول له لا مانع عندنا من اجتماع أبناء إبراهيم من يهود ونصارى ومسلمين، ولكن على أساس التوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ، وكما قال الله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

أما بالنسبة للتفسير فقد فسر الجابري القرآن حسب ترتيب النزول، وطرح رأيًا خاصًّا في كل الأمور الشرعية، في الحسد والسحر والمعجزة... وكل ما يتعلق بعلوم القرآن الكريم: المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، وبأسباب النزول إلخ... ونحن سنتناول بعضًا من هذه القضايا التي تناولها في حديثنا عن الأنسنة والعقلنة والأرخنة.

القراءات الحداثية في فكر محمد عابد الجابري

أولًا: أنسنة النص القرآني عند الجابري:

١ ـ القصص القرآني لا علاقة له بالحقيقة التاريخية:

اعتبر الجابري أنه ليس هناك أية علاقة بين القصص القرآني والحقيقة التاريخية، فعندما قص القرآن الكريم علينا قصة موسى عليه السلام من ولادته، وإلقاء أمه له في اليم، ثم عودته إلى أمه، ثم فراره من مصر، وعودته إليها ومواجهته لفرعون وسحرته، فاعتبر الجابري أنه ليس بالضرورة أن يكون ما تحدث به القرآن الكريم مطابقًا للحقيقة التاريخية.

ولأنه وضح أن المقصود الأول للقصص القرآني ـ حسب رأيه ـ هو ضرب المثل وأخذ العبرة والعظة والتأثير العاطفي.

٢ ـ الدعوة إلى فصل السياسة عن الدين:

دعا الجابري إلى فصل السياسة عن الدين، لأن الدين مطلق والسياسة نسبية، ولأن الدين يجمع والسياسة تفرق، دعا إلى ذلك مع أنه اعتبر أن السؤال عن الدولة والشريعة في الإسلام لا معنى له، وإنما جاء السؤال لوجود بعض المسيحيين في بلاد الشام، هم الذين استدعوا هذا السؤال قبل الحرب العالمية الأولى بقليل.

ثانيًا: عقلنة النص القرآني عند الجابري:

١ ـ أنكر الجابري كل المعجزات الحسية التي وردت في الأحاديث الشريفة من مثل: حنين الجذع للرسول ﷺ، فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: «أَنَّ النَّبيّ ﷺ كان يقوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالتْ امرأةٌ مِنَ الأنصار أو رجل: يا رسولَ اللهِ ألا نجعل لك منبرًا؟ قال: إِنْ شِئْتُمْ، فجعلوا له منبرًا، فلمَّا كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر فصاحت النخلةُ صياح الصبيِّ، ثم نزل النَّبيّ ﷺ فضمَّها إليه تئن أنين الصبيِّ الذي يسكن، قال:

كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها»[١]. وفي رواية: «قال فلما صُنِعَ له المنبر وكان عليه فسمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار، حتى جاء النَّبيُّ ﷺ فوضع يده عليها فسكنت»[٢].

ومن مثل نبع الماء بين يديه، وإطعام جيش بطعام شخص واحد، وسلام الحجر عليه، وإشفائه لبعض الصحابة من بعض الأمراض[٣]... إلخ.

٢ ـ أنكر الجابري معجزة انشقاق القمر التي تحدث عنها القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، واعتبر أنه وقع خسوف للقمر.

٣ ـ أنكر الجابري معجزة الإسراء والمعراج، حيث قال تعالى عن الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١١ ـ ١٨].

فاعتبر الجابري أن الإسراء والمعراج لم يقع بجسد الرسول ﷺ إنما كان رؤيا في المنام.

ثالثًا: أرخنة النص القرآني عند الجابري:

١ ـ يرى الجابري أن علينا ألا نطبق تجربتنا التاريخية، بل علينا أن نستلهم تجارب الأمم الأخرى المعاصرة في مجال الديمقراطية والاقتصاد والسياسة، وندخل فيها أحكامنا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه مرفوعًا عن جابر بن عبد الله ورقمه ٣٥٨٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه مرفوعًا عن جابر بن عبد الله ورقمه ٣٥٨٥.

(٣) تحدث ابن جرير الطبري في مسند علي قال: عن علي يقول: «ما رمدت ولا صدعت منذ مسح النبي ﷺ وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية» رقم ١٦٨ وقد قال المحدث عليه بأنه صحيح.

٢ ـ ويرى أن علينا أن لا نأخذ بالأحكام الشرعية التي نزل بها القرآن الكريم، لأنها أحكام تاريخية، وعلينا أن نقصر دور الدين في الوقت الحاضر على تقديم السيرة الأخلاقية.

٣ ـ يجب ألا نعتمد على النصوص الشرعية في تطبيق أحكام الدين، بل علينا الاعتماد على كليات الشريعة ومقاصدها، فالإسلام يريد العدل والمساواة فعلينا تحقيق العدل والمساواة بما تيسر من الوسائل.

***

الخلاصة

إن أخطر محاولتين قامتا في تاريخنا المعاصر من أجل تطويع الإسلام لصالح الحضارة الغربية، ومن أجل تدجين الإسلام لمقتضى مضامين الحضارة الغربية، هما:

١ ـ محاولة محمد عبده (توفي عام ١٩٠٥) في مطلع القرن العشرين تضييق مساحة الغيب في الإسلام عن طريق التوسع في تأويل النصوص لصالح المادية في الحضارة الغربية.

٢ ـ محاولة الجابري (توفي عام ٢٠١٠) في مطلع القرن الحادي والعشرين تضييق مساحة النقل لحساب العقل من أجل تحويل الدين الإسلامي إلى دين عقلاني يتوافق مع الحضارة الغربية.

***

المبحث الثالث

الكاتب الحداثي محمد شحرور

ولد محمد شحرور في ١١ ـ ٤ ـ ١٩٣٨، وتوفي ٢١ ـ ١٢ ـ ٢٠١٩، درس الهندسة المدنية في موسكو، ثم حصل على الدكتوراة من أدنبرة في إيرلندا.

اشتهر من خلال تأليف كتابه «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» عام ١٩٩٠، وطرح في هذا الكتاب منهجه الذي اعتمد تسويقه في السنوات التالية، وقد راج هذا الكتاب، وقد أشاد به روبرت بللترو مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى في عهد كلينتون، ودعا إلى ترويج كتابات ثلاثة كتاب في العالم العربي، وهم: د. محمد شحرور من سورية، ومحمد أركون من الجزائر، د. محمد سعيد العشماوي من مصر.

كما أهدى حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية كتاب «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» لمحمد شحرور إلى جميع ملوك ورؤساء الدول العربية في أحد مؤتمرات القمة.

والسؤال الآن: علام قام منهجه في التأليف؟

قام منهجه في التأليف على عدة دعائم، وهي:

١ ـ ركز محمد شحرور على التطابق بين الدلالة اللغوية والدلالة الشرعية، وأكد أن علينا أن نستقي الدلالة الشرعية من الدلالة اللغوية، وقد استشهد على صحة رأيه بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤]، من الواضح أن هذا المنهج قديم قام عليه منهج المعتزلة لأنهم عظموا اللغة العربية، ومن المؤكد أنه منهج خاطئ، لأن كثيرًا من الألفاظ ذات دلالة شرعية بعيدة ومختلفة عن دلالتها اللغوية، ويمكن أن نوثق هذا الكلام

بالاستشهاد بعشرات الألفاظ ومنها ألفاظ: الصلاة، الزكاة، التيمم، الحج، الوضوء، الإسلام، الإيمان، الإحسان إلخ...

فالصلاة تعني في اللغة الدعاء، ولكنها في الشرع متعددة الدلالات، فعندما نقول: صلى فلان الظهر. فمعنى ذلك أنه تأكد من دخول وقت الظهر، ثم توضأ، واتجه إلى القبلة، وكان طاهر البدن، وصلى في مكان طاهر، وصلى أربع ركعات، قرأ الفاتحة في كل ركعة، وركع مرة واحدة، وسجد سجدتين، ثم فعل هذا في كل ركعة، وقعد قعودًا أوسط قرأ فيه التشهد، ثم قعد القعود الأخير وقرأ فيه التشهد والصلوات الإبراهيمية، ثم سلم تسليمتين. فإن الدلالة الشرعية لقوله: صلى الظهر، تعني أنه قام بكل هذه الأعمال في أربع ركعات، في حين أن الدلالة اللغوية تعني أنه دعا ربه الظهر فقط، فإذن شتان ما بين الدلالة الشرعية للكلمة والدلالة اللغوية.

٢ ـ استبعد محمد شحرور في تأليفه كتاب «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» كل العلوم التي استخدمها العلماء المسلمون على مدار التاريخ الإسلامي في فهم القرآن الكريم، واستنباط الأحكام من آياته من مثل: علوم القرآن الكريم، علوم الحديث الشريف، علم أصول الفقه، علوم التفسير، إلخ...

واعتبر أن استخدامها زاد ضياعه وضلاله، ولم يوصله إلى حل المشكلات التي واجهتها جماهير الأمة في العصر الحديث، وقد قال ذلك في معرض حديثه عن الزلزال الذي أصاب الأمة بعد نكسة ١٩٦٧، والتي اقتطعت منها إسرائيل: سيناء وغزة من مصر، والضفة الغربية من الأردن، والجولان من سورية، والذي جعله يفكر في أسباب وقوع هذه النكسة ـ الزلزال، وكيفية الخروج من هذه النكسة، فاستخدم كل العلوم القديمة في التعامل مع النص القرآني، لكنه لم يجد الحل، بل ازداد ضياعًا، لذلك توصل إلى نتيجة مفادها عدم فائدة العلوم القديمة جميعها ـ والتي تعاملت معها الأمة على مدار ألف

وأربعمائة سنة ـ من أجل فهم واقعة النكسة، وعدم وجود حل لها من خلال التفاعل مع العلوم الشرعية القديمة.

وقد ذكر د. محمد شحرور أنه بقي عشر سنوات في هذا المأزق من ١٩٧٠ إلى ١٩٨٠، مما جعله يتجه إلى البحث عن منهج آخر، وهو ما انتهى إليه في الكتاب الذي ألفه تحت عنوان «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» واستغرق معه عشر سنوات من عام ١٩٨٠ إلى عام ١٩٩٠ حتى استطاع أن ينتهي من تأليف كتابه هذا، ورسم فيه المنهج الجديد والحل الذي توصل إليه.

٣ ـ يمكن أن نضيف نقطة أخرى في المنهج الذي أقامه شحرور وهو اعتباره أنه ليس هناك ترادف في اللغة، بل إن كل لفظ له معنى محدود، فالقرآن ليست مرادفة للذكر، أو الفرقان، أو الكتاب إلخ...، بل لكل لفظ معنى محدد، وهذا صحيح نتفق معه عليه، وقد قال به كثير من القدماء.

٤ ـ رفض السنة واعتبرها تفسير الرسول ﷺ للوحي من خلال ثقافته وعلوم عصره، وهذا مخالف لما هو متعارف عليه من أن السنة هي قول الرسول أو فعله أو إقراره مع تسديد الله تعالى له، إما إلهامًا أو وحيًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٤].

٥ ـ رفض محمد شحرور كل التراث الإسلامي من فقه وأحكام وتفسير إلخ... واعتبرها اجتهادات أشخاص، وهي تمثل انعكاسات لواقعهم الثقافي ولعلوم عصرهم، لذلك رفض قبولها والتعامل معها.

٦ ـ فسر محمد شحرور القرآن الكريم بعلوم عصرنا، وبهذا يكون القرآن ـ وفق رأيه ـ صالحًا لكل زمان ولكل مكان. ويمكن أن نقدم شاهدًا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١ ـ ٤].

فسّر الدكتور شحرور الآيات السابقة بما يلي:

«فالخلق الأول بدأ بانفجار كوني هائل حيث قال: (والفجر. وليال عشر. والشفع والوتر) حيث إنّ الفجر هو الانفجار الكوني الأول «وليال عشر» معناه أنّ المادة مرّت بعشر مراحل للتطوّر حتى أصبحت شفّافة للضوء، لذا أتبعها بقوله: «والشفع والوتر»، حيث إنّ أول عنصر تكوّن في هذا الوجود وهو الهيدروجين وفيه الشفع في النواة والوتر في المدار، وقد أكّد هذا في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٧]، والهيدروجين هو مولّد الماء، أي بعد هذه المراحل العشر أصبح الوجود قابلًا للإبصار؛ لذا قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]».

ليس من شك بأنّ الدكتور شحرور قد ابتعد في متاهات التأويل عندما فسّر الفجر بالانفجار الكوني الأول، وفسّر الليالي العشر بمراحل تطوّر المادة العشر، وفسّر الشفع والوتر بغاز الهيدروجين؛ لأنّ معطيات السورة لا تسمح بمثل هذا التأويل، ولو أقررناه على تأويله لأعطينا الفرصة لكل صاحب بدعة أن يُطوّع آيات القرآن حسب بدعه وهواه.

والآن بعد أن استعرضنا معالم منهجه، سننقل بعضًا من آرائه التي أخضع فيها الآيات القرآنية الكريمة للأنسنة والعقلنة والأرخنة.

أولًا: أمثلة على أنسنة النص القرآني:

المثال الأول: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، فسر شحرور السبع المثاني فقال: جاء عن العلماء في مقاييس اللغة: (المثناةُ: طرف الزمام في الخشاش)، وإنما يثنى الشيء من أطرافه، فالمثاني إذًا أطراف السور وهي إذن فواتحها، فتوصّل إلى أنّ السبع المثاني هي سبع فواتح للسور، فإذن السبع المثاني هي الفواتح التالية: ١ ـ ألم، ٢ ـ ألمص، ٣ ـ كهيعص، ٤ ـ يس، ٥ ـ طه، ٦ ـ طسم، ٧ ـ حم.

ثم نظر إلى الأحرف التي تتضمنها الآيات السبع السابقة فوجدها تتألف من ١١ حرفًا، وأخذ الأحرف التي وردت في بداية سور أخرى ولم ترد في الفواتح السابقة فوجد أنها ثلاث هي: ١ ـ القاف، ٢ ـ الراء، ٣ ـ النون. نجمعها مع الأحرف السابقة فتصير أربع عشر حرفًا، وأشار إلى أنها أصبحت (٧×٢) وهي أيضًا سبع مثان.

وربط بين ما توصّل إليه وهو أنّ أحرف السور الفواتح بلغت أحد عشر حرفًا وبين قول علماء اللغويات واللسانيات من أنّ الحد الأدنى لأية لغة إنسانية معروفة في العالم هو أحد عشر صوتًا، واعتبر أنّ هذا هو الحد الأدنى اللازم من الأصوات لأي تفاهم بيننا وبين أية مخلوقات يمكن أن توجد في الكواكب الأخرى في المستقبل.

هذا ما أورده الدكتور شحرور في تفسيره للسبع المثاني، ولنر ما ورد في السنّة عن تفسير السّبع المثاني لنر مدى ابتعاده عن الصواب لغة وشرعًا وعقلًا.

قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في مسنده عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال: (كنت أصلّي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صلّيت، قال: فأتيته فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» قال: قلت: يا رسول الله إني كنت أصلّي. قال: «ألم يقل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟!». ثم قال: «لأُعلّمنّك أعظم سورة في القرآن، أو من القرآن قبل أن تخرج من المسجد». قال: فأخذ بيدي فلمّا أراد أن يخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلّمنّك أعظم سورة في القرآن. قال: «نعم، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»)[1].

وقد وردت بعض الروايات تفسّر الفاتحة بالسّبع المثاني فقط، وهل بعد تفسير

(١) الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، رقم (١٧٨٨٤)، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

الرسول ﷺ للسّبع المثاني من تفسير؟! لا أظن أنه يجوز لمسلم بعد أن يسمع تفسير الرسول ﷺ أن يتطلع إلى تفسير آخر.

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧].

حمّل الدكتور شحرور بعض الألفاظ معاني لا تسمح بها اللغة ولا سياق النص، ومن أمثلة ذلك تفسيره عبارة أم الكتاب التي وردت في ثلاث آيات كريمة برسالة محمد ﷺ، وأضاف إلى ذلك تحديد مضمون تلك الرسالة وهي الحدود والأخلاق والعبادات وتعليمات خاصة وعامة، ولو فسّرنا كلمة «أم الكتاب» معجميًّا لوجدناها تعني «أصل الكتاب»، ولو استقرأنا الآيات التي وردت فيها تلك العبارة لوجدنا أنها تحتمل معنيين:

الأول: الآيات المحكمات: وذلك لقوله عز وجل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]. وقد فصّلت كتب علوم القرآن تعريف المحكم وتعريف نقيضه المتشابه.

الثاني: اللّوح المحفوظ: وذلك لقوله عز وجل: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، ولقوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

وفي كلا الحالين يتّضح تحميل الدكتور شحرور للفظ «أم الكتاب» معاني لا يحتملها التحليل اللغوي ولا سياق النّص، وممّا يزيد في اعتسافه أنه حدّد الآيات المحكمات بالحدود والأخلاق والعبادات، لكنّه يمكن أن تكون الآيات المحكمات في صفات الله

تعالى، أو بعض آيات الجنّة والنّار إلخ... كقوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصمد: ١]، وكقوله عز وجل: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الصمد: ٣]، وكقوله عز وجل عن الجنّة: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨] إلخ...

المثال الثالث: قال الدكتور شحرور عن العلماء الربانيين: العلماء الربانيون هم العلماء الذي اخترعوا المخترعات العلمية للبشرية مثل الأدوية والكهرباء والطائرات والإنترنت إلخ...، ومن الواضح أن هناك معنى دينيًا لكلمة ربانيين حدده القرآن الكريم والرسول ﷺ، وتحدث عن وجودهم في الأمم السابقة وبالذات في بني إسرائيل، حيث وصفهم بأنهم حملة الكتب السماوية، وبأنهم ينهون الناس عن الباطل، وقد وردت كلمة «ربانيين» ثلاث مرات في القرآن الكريم، وفي كل مرة مرتبطة بمعنى ديني يقوم على اتباع كتاب الله، وأنهم يعلمونه ويدرسونه، وبأنهم يتخلقون بآداب الدين وأخلاقه، فقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

لكن الدكتور شحرور فرغ كلمة ربانيين من معناها الديني وجعل «العلماء الربانيين» فقط هم الذين اخترعوا للبشرية الأدوية والكهرباء والطائرات والإنترنت إلخ...

ثانيًا: أمثلة من عقلنة النص القرآني:

المثال الأول: القصص في القرآن الكريم:

للعبرة تحدث القرآن الكريم عن أنبياء سابقين متعددين، وتحدث عن دعوتهم والمصاعب التي واجهوها، وتحدث عن عقاب الله لأقوامهم الذين عصوهم ولم يستجيبوا لهم، وقد تناول أنبياء في أصقاع مختلفة، ومنهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وصالح وهود وشعيب عليهم الصلاة والسلام إلخ...

كما تحدث القرآن الكريم عن أشخاص آخرين ووقائع ليست مرتبطة بأنبياء، ورسل،

ومن هذا القصص: أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين، وقصة الخضر مع موسى عليه السلام، وذي القرنين إلخ...

وليس من شك بأن جميع هذا القصص حق في وقائعه وفي كل تفصيلاته التي ذكرها القرآن الكريم، لكن الدكتور شحرور اعتبر هذا القصص القرآني جاء للعبرة وليس بالضرورة أن يكون مطابقًا للواقع.

المثال الثاني: تفسير الروح:

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]، ليس من شك أن الروح أمر مجهول، ومع كل التقدم العلمي الذي نعيش في ظلاله، بقي شأن الروح أمرًا غامضًا، ولم يستطع أن يتقدم في مجال سر الحياة، ومع ذلك فإن شحرور أعطى تفسيرًا، فقال إن الروح هي أسماء الله الحسنى، وضعها الله في ذات الإنسان، وأصبحت هي أداة الإنسان في العلم والمعرفة. وليس من شك بأن هذا الكلام ليس هناك أي دليل عليه، وصحيح أن أسماء الله الحسنى هي أسماء شريفة لها قيمتها في العبادة لذلك قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، لكن ليس هناك ما يدل من ناحية نقلية ولا عقلية على الربط بين أسماء الله الحسنى والروح، إنما هو كلام غير علمي وغير موضوعي.

المثال الثالث: خلق الإنسان:

تحدث القرآن الكريم في عدد من آياته عن خلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١ ـ ٢].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ

﴿أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢].

وقد أشارت الآيات إلى أن الله خلق آدم من تراب ثم نفخ فيه من روحه، ثم علمه الأسماء إلخ...

وقد فسر شحرور خلق الإنسان فاستند إلى النظريات الغربية الحديثة في خلق الإنسان، وأولها «نظرية داروين»، فاعتبر شحرور أن الله خلق الهيدروجين أولًا، ثم الماء، ثم خلق خليه من الماء والهيدروجين، ثم تطور الخلق من خليه إلى مجموعة خلايا إلى إنسان، وهو اعتمد على نظرية داروين وأتباعه اعتمادًا كاملًا في تفسير خلق الإنسان.

ثالثًا: أمثلة من أرخنة النص القرآني:

المثال الأول: إلغاء عقوبة الإعدام:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله تعالى عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّب الزَّانِي، والنَّفْس بِالنَّفْسِ، والتَّارِك لِدِينِهِ الْمُفَارِق لِلْجَمَاعَةِ». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

ومن الواضح أن حد القتل هو أحد الحدود التي رسمها الإسلام من أجل الحفاظ على حياة المسلمين، ولا يجوز أن يلغى بحال من الأحوال، ومع ذلك فقد اعتبر محمد شحرور أنه بالإمكان إلغاء عقوبة الإعدام والبقاء ضمن الشريعة.

المثال الثاني: حد السرقة:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

من الواضح أن الحكم الشرعي الذي ورد في القرآن الكريم في السارق هو قطع اليد، وقد فصلت السنة والفقه الأمور المرتبطة بتنفيذ هذا الحكم، ومنها المبلغ الذي يجوز فيه إقامة الحد، وكيفية قطع اليد إلخ...

لكن شحرور كعادته في تقديم غرائب الفهم، فسر الأمر بقطع اليدين، بأنه حجزهما وحبسهما ومنع أيديهما من الوصول إلى المسروقات، وهو فهم يخالف ما فهمه الرسول والصحابة، وقاموا بتنفيذه.

المثال الثالث: نهى الرسول ﷺ عن زواج المسلم من المسلمة مع عمتها أو خالتها:

جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «لا يُجمَعُ بين المرأة وعمتها، ولا بين المرأة وخالتها». متفق عليه.

ومع هذا الحكم الواضح فإن شحرور أعلن جواز مثل هذا الزواج، لأنه اعتبر النهي لا يعني التحريم فهو نهي فقط.

المثال الرابع: اليهود والنصارى مسلمون:

اعتبر الدكتور شحرور أن اليهود والنصارى مسلمون ولكنهم ليسوا حنفاء مع كل الآيات التي تبين كفرهم وبعدهم عن الإسلام.

الصورة الثالثة من التغريب

إصدار أحكام خاطئة على

تاريخنا وحضارتنا

مدخل إلى الصورة الثالثة من التغريب

لقد اجتهد الغرب أن يدرس تاريخنا وحضارتنا وأدبنا ولغتنا وعلماءنا وشريعتنا وعلومنا النقلية والعقلية وأنظمتنا السياسية والاقتصادية والمالية إلخ...، درس كل ذلك انطلاقًا من حضارته وقيمه ومبادئه التي انتهى إليها واعتبر حضارته وتاريخه وأنظمته السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي المعيار والمقياس الذي نزن به الأمور، والتي تكون مصدر الحكم.

ومن خلال متابعة أحكامه التي أصدرها نجد أنه كان ظالمًا ومخطئًا في كثير من الأحكام، وكان منصفًا ومصيبًا في الأقل منها.

وسآخذ حكمين أصدرهما على تاريخنا وحضارتنا، فهو قد اعتبر أن تاريخنا «تاريخ استبداد»، وأن حضارتنا مرت بـ «عصر انحطاط» كالعصر الذي عرفته أوروبا في القرون الوسطى. وأعتقد أن هذين الحكمين خاطئان، وقد فندتهما في فصلين، وهما:

الفصل الثامن: رد على دعاوي الاستبداد في تاريخنا.

الفصل التاسع: مفهوم الانحطاط: عرض وتفنيد.

***

الفصل الثامن
رد على دعوى الاستبداد في تاريخنا

مدخل إلى الرد على دعوى الاستبداد في تاريخنا

اتهم كثير من الكتاب المعاصرين تاريخنا بأنه «تاريخ استبداد»، واعتبروا أن الاستبداد بدأ منذ عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، ثم عمموا هذا الحكم عل كل الحكومات التالية بدءًا من يزيد بن معاوية رحمه الله إلى آخر خليفة عثماني.

وليس من شك بأن هذه الأحكام جائرة في حق تاريخنا وأمتنا، وهي أحكام لا تقوم على تحقيق تاريخي دقيق من جهة، بل تقوم على موازنات ظالمة من جهة ثانية، وإن الاستبداد الذي عرفته الدولة الفارسية مستندًا إلى عهد أردشير، والذي عرفته أوروبا في القرون الوسطى مستندًا إلى الحكم الإلهي المقدس لم تعرفه المنظومة الثقافية الإسلامية، بل إن المنظومة الثقافية الإسلامية أوجدت المسلم الذي ليست لديه قابلية للاستبداد، بل تكوينه قائم على محاربة الاستبداد، فالرسول ﷺ قال: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).

وقد احتوى هذا الفصل أربعة مباحث:

المبحث الأول: لماذا تحولت الخلافة من «الشورى» إلى «الوراثة»؟

المبحث الثاني: تشريح الاستبداد: المستبد، ثقافة الاستبداد، جمهور المستبدين.

المبحث الثالث: المستبدون والمواجهة: موسى عليه السلام نموذجًا.

المبحث الرابع: دور الدستور والمؤسسات المدنية في إبطال مفعول الاستبداد.

أمـا المبحـث الأول فقد وضحـت فيه أن هذا التحـول لم يأت رغبة مـن معاوية رضي الله عنـه فـي السـيطرة والأنانيـة والملـك، بل جـاء نتيجة ظـروف موضوعية تقتضـي ذلك، لأنـه إما أن يفعل ذلك وإما أن الدولة الإسـلامية سـتقتلع، وأن الإسـلام بسـبب المؤامرات مـن قبـل الفـرس واليهود والنصارى سـينتهي فـي الأرض، ومما يؤكد ذلك أن هـذا القرار لـم يكن قـرار معاوية وحـده، بل كان بإقـرار ورضا وموافقـة عدد من الصحابـة زاد عددهم عـن مئتـي صحابـي كانـوا موجودين فـي عهده، ممـا يحيلنـا لقول إن هـذه الخطـوة كانت سـليمة ومقبولة ومعقولة.

أما المبحث الثاني فقد حمل عنوان «تشريح الاستبداد: المستبد، ثقافة الاستبداد، جمهور المستبَدين»، فقد بينت فيه أن أهم ما يرسخ الاستبداد ليس وجود المستبد فحسب، بل وجود ثقافة الاستبداد، ووجود جمهور المستبدين، وبينت أن الإسلام يبني المسلم المقاوم والرافض للاستبداد، وهذا مما جاء من أجله الإسلام.

أما المبحث الثالث فقد حمل عنوان «المستبدون والمواجهة: موسى عليه السلام نموذجًا»، وقد بينت فيه أن الله قص علينا قصة موسى عليه السلام في مواجهته لفرعون بشكل مفصل، وكانت الحكمة من ذلك تزويدنا بنموذج تفصيلي يقتضي ضرورة المواجهة مع المستبدين، والعدة اللازمة لتلك المواجهة، وتوضيح أساليب المستبدين، وتوجيه القيادات إلى البناء الإيماني والتركيز على الصلاة والعيادة.

أما المبحث الرابع فقد بين أهمية الدستور نسبة للأنظمة الحديثة، وقد جاءت أهمية الدستور من أنه ضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وقنن واجبات الحاكم والمحكوم وبين حقوق كل منهما، وقد قام القرآن الكريم بهذا الدور خير قيام، وبهذا تكون الأمة الإسلامية سبقت كل الأمم في تقنين علاقة الحاكم بالمحكوم وضبطها من أجل الوصول إلى نظام عادل بعيد عن الاستبداد.

وقد وضحت في هذا المبحث قيام بعض المؤسسات المدنية من مثل مؤسسة العلماء، والخطباء، والقضاة، وشيوخ الحرف، الحسبة، والأوقاف بدور مدني، لتوسيع الدور الأهلي وتقليص دور الدولة في مختلف شؤون الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية... إلخ...

***

المبحث الأول

لماذا تحولت الخلافة من «الشورى» إلى «الوراثة»؟

اختار المسلمون أبا بكر الصديق رضي الله عنه رئيسًا للدولة وخليفة للرسول بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وقد كان مجيئه خليفة للرسول ﷺ كسرًا للعادات والسنة المتبعة في ذلك العصر والوقت، فقد كان السائد في الحكومات القائمة ـ آنذاك ـ أن يكون الوارث للحكم ابنًا للحاكم السابق، أو أحد أفراد أسرته، والواضح أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يكن لا هذا ولا ذاك.

وقد جاء اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا نتيجة شورى غير مسبوقة في التاريخ، فقد اجتمع الصحابة في سقيفة بني ساعدة وتداولوا أسماء متعددة ليكونوا في رأس الدولة، ثم اختاروا أبا بكر رضي الله عنه ليكون خليفة للرسول، ثم أخذ البيعة بناء على هذا الاختيار والشورى، وكانت طاعة المسلمين له بعد ذلك ناتجة من كونه جاء اختيارًا، وكونه جاء نتيجة بيعة ورضا من المسلمين.

لقد اعتمدت الدولة الإسلامية الشورى في اختيار رئيس دولتها ـ كما هو واضح ـ بدءًا من أبي بكر وانتهاء بعلي رضي الله عنه، لكن الأمر تغير منذ عهد معاوية، فأصبح وراثة، إذ ورث الحكم لابنه يزيد، ثم تتالت الأمور بهذه الصورة، فلماذا تغير الأمر من «شورى» إلى «وراثة»؟

لقد تعرضت الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ إلى نوعين من المؤامرات خارجية وداخلية، وهذه المؤامرات دفعت الأمة إلى تغيير هذه القاعدة من «شورى» إلى «وراثة»، وسنتحدث عن النوعين وأخطارهما، ونتائجهما على الأمة.

أولًا: المؤامرات الخارجية

لقد تجسدت المؤامرات الخارجية بعد وفاة الرسول ﷺ بحروب الردة، فقد ارتدت

بعد وفاة الرسول ﷺ معظم قبائل الجزيرة العربية، وكانت هذه القبائل تريد اقتلاع الدولة الإسلامية من المدينة، وإنهاء الوجود الإسلامي، لكن قيادة أبي بكر الصديق واجهتها بموقف حازم بأن سيرت جيوشًا متعددة بقيادة كبار الصحابة لمقاتلتها، وقد استطاعت هذه القيادة الحازمة أن تخضعهم، وتقتلع شوكتهم، وتجعلهم يلتزمون ويطيعون قيادة أبي بكر في المدينة المنورة.

ثانيًا: المؤامرات الداخلية

مؤامرة أبي لؤلؤة المجوسي:

لقد انتهت مؤامرة أبي لؤلؤة المجوسي باستشهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المدنية عام ٢٣ هجرية، وقد حاك خيوطها مع شخصين آخرين هما: الهرمزان وهو أحد أمراء الفرس على الأهواز، وجفينة وهو رومي من سبي مدينة الحيرة.

ليس من شك بأن اغتيال عمر بن الخطاب رضي الله عنه شكل زلزالًا للدولة الإسلامية، هدد وجودها، وقطع سلسلة البناء العظيمة التي بدأ عمر بن الخطاب في إرسائها لهذه الدولة الفتية.

مؤامرة عبد الله بن سبأ:

مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه:

لقد كان الدور الأكبر لعبد الله بن سبأ في إثارة المجال السياسي، فقد أثار الغوغاء حول بعض تصرفات عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد اعتمد في فتنته على تحريك أبناء القبائل المرتدة، فقد كان عماد المجموعات التي تحركت من البصرة والكوفة ومصر وذهبت إلى المدينة، وحاصرت عثمان بن عفان من القبائل المرتدة، كما كانت قياداتها من القبائل التي ارتدت في عهد أبي بكر الصديق.

وقد حدثت وقائع متعددة لا مجال للتفصيل فيها، وهي موجودة في كتب التاريخ تبين

أن عدم الوصول إلى حل كان هو المقصود من الفتنة، وأن مقصدها هو زعزعة الدولة، وأبرز مثال على ذلك هو: أنه بعد أن حاور عثمان المتمردين ورد على جميع حججهم فيما يتعلق بتقريب أقاربه، وإيثارهم بالولايات والمال، وأقنعهم بنزاهته وسلامة سيرته، وعادوا إلى بلادهم: مصر، والبصرة، والكوفة.

برزت واقعة أن عثمان رضي الله عنه أرسل كتابًا إلى والي مصر بقتل المتمردين بعد وصولهم، مما جعل المتمردين يعودون ويتهمونه بنقض العهد، ولكن الواضح من قصة الكتاب، أن هناك طرفًا كان لا يريد أن تهدأ الأمور، وتنتهي إلى حل يؤدي إلى التهدئة في الدولة، بل يريد أن تستمر الأزمة، وتنتهي إلى ما انتهت إليه وهو زعزعة الدولة، وصولًا إلى اقتلاع الدولة الإسلامية ثم اقتلاع الإسلام من الأرض، وهل هناك أكبر من قتل رئيس الدولة وهو عثمان بن عفان رضي الله عنه؟؟!!!

وقعة الجمل:

بعد أن اجتمع المعسكران في البصرة: معسكر عائشة وطلحة والزبير من جهة، ومعسكر علي بن أبي طالب من جهة ثانية ﷺ جميعًا، وتوصل الطرفان إلى حل طرحته عائشة ﷺ، وكان الغد موعد إبرامه، وعلم أصحاب الفتنة ذلك، وأيقنوا أن اتفاق الطرفين سيكون فيه خسارتهم، لذلك هجموا على الطرفين، وظن كل طرف أن الآخر غدر به وهاجمه، وبهذا حدثت «معركة الجمل»، وكان سببها الرئيسي هم أصحاب الفتنة ومثيروها.

مقتل علي رضي الله عنه:

استشهد الخليفة الرابع علي رضي الله عنه على يد الخوارج، مما جعل الدولة تعيش محنة ثالثة، يظهر فيها مدى قوة الأطراف التي تقصد اقتلاع الدولة الإسلامية، ثم اقتلاع الإسلام، ثم أصبح هناك رأسان للدولة بعد استشهاد علي هما: الحسن بن علي، ومعاوية، لكن الحسن تنازل عن الخلافة لمعاوية لأنه وجد أنه أقدر على المحافظة على بقاء الدولة

واستمراريتها، بعد هذه الفتن التي قتلت ثلاثة خلفاء أحدهم والده علي بن أبي طالب.

في ظروف الفتنة ـ هذه ـ التي كانت تستهدف اقتلاع الدولة الإسلامية ثم اقتلاع الإسلام، توجه معاوية بن أبي سفيان إلى «توريث» ابنه، وتجميد قاعدة «الشورى»، وقد ساعده على هذا التوجه خطوتان:

الأولى: عام الجماعة:

عندما تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنهما، واعتبر المسلمون هذا العام عام الجماعة، وجاءت خطوة الحسن بن علي رضي الله عنه تحقيقًا لحديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه عن الحسن: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّه أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1].

الثانية: مبايعة بعض الصحابة ليزيد:

لقد بايع عدد كبير من الصحابة يزيد على الخلافة، وأقروا معاوية على توريث ابنه يزيد، وتقدر بعض هذه الروايات بأن عددهم زاد عن المائة، ولا شك أن الصحابة عندما أقروا معاوية على ذلك، أقروه لأنهم يدركون أن هذا في مصلحة استقرار الدولة، وأن البديل سيكون تهديد وجود الدولة الإسلامية، وزعزعة استقرارها، بل إمكانية اقتلاعها ثم اقتلاع الإسلام. ليس من شك أن الصحابة اتخذوا هذا الموقف نتيجة وعي متقدم في الحرص على الدولة الإسلامية.

***

الخلاصة

عندما تحولت الدولة الإسلامية من نظام «الشورى» إلى نظام «الوراثة» في منصب «رئاسة الدولة» كان ذلك نتيجة وعي عميق من الصحابة بأنها خطوة ضرورية لأجل

(١) رواه البخاري في صحيحه مرفوعا عن أبي بكرة نفيع بن الحارث بالرقم ٣٦٢٩، وحكم عليه بأنه صحيح.

المحافظة على وجود الدولة الإسلامية، وبقاء الإسلام ذاته في سدة التطبيق وإلا سيكون البديل هو «اقتلاع الدولة» و«اقتلاع الإسلام»، وهذا لا يعني أن الشورى قد انتهت في حياة الأمة الإسلامية ومؤسساتها، بل بقيت موجودة فاعلة في حياة الأفراد والمؤسسات؛ لأنها قيمة دينية يتعبد المسلمون الله بها على مدار التاريخ، وهناك شواهد كثيرة على تلك الحقيقة[١].

❊ ❊ ❊

(١) انظر كتاب «مجالس الشورى» في عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ للكاتب الدكتور عثمان علي عطا حيث يفصّل هذه الحقيقة، ويقدم دلائل تحليلها.

المبحث الثاني

تشريح الاستبداد: المستبد، ثقافة الاستبداد، جمهور المستبَدين

ليس من شك بأن الاستبداد من أهم الأمراض والأخطار التي تدمّر الأمم، وتُضعف فاعليتها، وقد تعرضت أمتنا في العصر الحديث على يد الدولة القومية الوطنية إلى صور من الاستبداد لم تعهدها في سابق تاريخها، وهي صور من أبشع صور الاستبداد، لكنها ثارت عليه في بعض الدول إثر ثورات الربيع العربي، وكادت أن تقتلعه، لكن التجربة تعثرت كما هو واضح من مسيرة الأحداث.

ونحن نريد من أجل محاربة الاستبداد أن نشرحه، فعلام يقوم الاستبداد؟

يقوم كيان الاستبداد على ثلاثة محاور:

١ ـ المُستبِد.

٢ ـ الجمهور المُستَبَد به.

٣ ـ الثقافة التي يستخدمها المُستبد في تطويع الجمهور.

وقد كانت هناك ثلاثة أنواع من الثقافات عاصرت الحكم الإسلامي وسبقته في تسويغ الاستبداد وصياغة ثقافته، وهي:

١ ـ الثقافة الفارسية.

٢ ـ ثقافة السلطة الكنسية.

٣ ـ ثم ثقافة الملوك الإقطاعيين.

وجميعها يقوم على أربعة أركان هي:

١ ـ ٢. تقديس الحاكم، وسلطته.

٣. السلطة مطلقة، لا شيء يقيدها أو يحد من إطلاقها.

٤. لا ينبغي أن تكون هذه السلطة موضع اعتراض.

ونجد تأييدًا للأركان الأربعة في كلمة القديس «بولس» ـ الذي تُعتبر أقواله أهم الأقوال المرجعية في الفكر الكنسي ـ التي يُرجع فيها السلطة إلى الله، فيقول: «ليخضع كل واحد للسلطات المنصّبة، فإنه لا سلطان إلاّ من الله. والسلطات الكائنة إنما رتبها الله. ومن يقاوم السلطان ـ إذن ـ إنما يعاند ترتيب الله. والمعاندون يجلبون الدينونة على أنفسهم».

ثم بعد أن أصبحت السيادة للكنيسة في القرون الوسطى، أصبح السلطان هو البابا، وعندما حاول فريدريك الثاني المطالبة لنفسه بالسلطة التامة أجابه البابا إينوسان الرابع (١٢٤٣ ـ ١٢٥٤م) بأن سلطة الحكومة الزمنية لا يمكن أن تُمارس خارج الكنيسة «لأنه ليس هناك من سلطة أسسها الله خارجها»، وأضاف «إن نائب المسيح عليه السلام تلقى سلطة ممارسة قضائه بواسطة المفتاح الأول على الأرض بالنسبة للأمور الزمنية، وبواسطة المفتاح الثاني في السماء بالنسبة إلى الأمور الروحية».

ثم تمرّد الملوك الأوروبيون على سلطة الكنيسة، وفصلوا السلطة الزمنية عن السلطة الكنسية، وقد فعل ذلك فيليب الجميل الذي حكم فرنسا (١٢٨٥ ـ ١٣١٤م)، وأصدر قرارًا في عام ١٢٩٧م فصل فيه الحكومة الزمنية عن الحكومة الدينية، وأقام سلطته على حق الملوك المقدس، أو نظرية الحق الإلهي، وتقوم هذه النظرية على أن السلطة مقدسة، فالملوك هم خلفاء الله في الأرض وعن طريقهم يدير شؤون مملكته، لذلك لم يكن العرش الملكي عرشًا ملكيًا فقط، بل كان ذلك العرش هو عرش الإله ذاته، فالملوك يَحِلّون محل الإله الأب، وسلطتهم مطلقة، ولا يجب أن تكون محل اعتراض.

وتحتل منظومة الثقافة الفارسية الذروة في تطويع الشعوب للمستبدين، وخير ما يعبر عن هذه الثقافة «عهد أردشير» الذي كتبه أردشير لولده، واعتبرت الثقافة الفارسية أن الدين

طاعة رجل، وأن طاعة السلطان من طاعة الله، واعتبرت ـ أيضًا ـ أن الملك عنصر أساسي وضروري في الأخلاق الكسروية، وطاعته هي القيمة المركزية في هذه الأخلاق، وقد دمجت الثقافة الكسروية في النهاية «الدين والطاعة والسلطان» في حزمة واحدة.

وعندما جاء الإسلام أقام كيانه السياسي على منظومة ثقافية جديدة، تصطدم كليًا مع المنظومات الثقافية السابقة أو المعاصرة له، واعتبرت تلك المنظومة الثقافية أن الحاكم بشر، وسلطته بشرية، وهي ليست مطلقة بل مقيدة بالقرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ ويمكن أن تكون محل اعتراض، وهناك عشرات الأدلة على وضوح هذه المنظومة الثقافية في أذهان الخلفاء والصحابة والمسلمين من بعدهم.

يأتي في أولها كلمة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي ألقاها عند توليه الخلافة: «أيها الناس لقد ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

وقد أوضح أبوبكر الصديق في كلمته إلى المسلمين الذين انتخبوه أنه حاكم بشر، وأن سلطته بشرية، وأنها محددة بشرع الله وطاعة الله ورسوله ﷺ، وأنه مسموح الاعتراض عليه، وقد بقي هذا الفهم راسخًا عند المسلمين على مدار القرون، وهو أساس المنظومة الثقافية الإسلامية في العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وهناك عشرات الأدلة، وقد اتضح هذا في مسيرة العلماء على مدار الأربع عشر قرنًا.

وسأضرب مثالًا على ذلك بأئمة المذاهب الأربعة: أبو حنيفة والشافعي ومالك وأحمد بن حنبل رحمهم الله، فجميعهم اعتبروا الحاكم المعاصر بشرًا، وأن سلطته بشرية، وأكد ذلك اعتراضهم على بعض تصرفات الحكام المعاصرين لهم، لذلك تعرضوا للضرب حينًا وللسجن حينًا آخر، ويمكن أن أذكر بعض الوقائع أكثر تفصيلًا من سيرة الإمام أبي حنيفة.

فقد عاصر أبو حنيفة رحمه الله الدولتين: الأموية والعباسية، وقد خرج في عصره «زيد بن علي» على الدولة الأموية، وناصر أبو حنيفة زيدًا، وأيّده بالمال، فأعطاه عشرة آلاف درهم، وقد اعتقله والي الأمويين على الكوفة يزيد بن عمر بن هبيرة بعد أن رفض أن يتولى منصب المسؤول عن الخاتم في الولاية، وضربه على ذلك حتى كاد أن يموت، ثم أخرجه من السجن، ثم فرّ أبو حنيفة إلى مكة وبقي هناك إلى أن سقط الحكم الأموي وعاد إلى الكوفة.

أما العباسيون فقد خرج عليهم «محمد ذو النفس الزكية»، وناصره أبو حنيفة رحمه الله، وأقنع بعض قواد جيش أبي جعفر المنصور بعدم مقاتلة «محمد ذي النفس الزكية»، وقد استجابوا له، وقد جادل أبو حنيفة أبا جعفر المنصور بخصوص أهل الموصل الذين انتفضوا عليه، وقد اشترط المنصور عليهم أنهم إذا انتفضوا تَحِلّ دماؤهم، فجمع المنصور الفقهاء وفيهم أبو حنيفة واستفتاهم في هذا الشأن، فأجابه أبو حنيفة: «إنهم شرطوا لك ما لا يملكونه، وشرطت عليهم ما ليس لك، لأن دم المسلم لا يَحِل إلا بأحد معان ثلاثة، فإن أخذتهم أخذت بما لا يَحِل، وشرط الله أحق أن تُوفي به».

ثم استمرت المواقف المعارضة من أبي حنيفة لأبي جعفر المنصور، فلم يرض أن يتولى القضاء في بغداد، وطلب منه أن يرجع إليه القضاة فيما يُشكِل عليهم فرفض، فأنزل به العذاب بالضرب والحبس، ثم مات بعد هذه المحنة على اختلاف في روايات الضرب والحبس والموت، ثم دفن في بغداد، وخرج معه خلق كثير في جنازته. وقس على ذلك بقية الأئمة الأربعة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل رحمهم الله جميعًا.

لقد حاول بعض أنصار الثقافة الكسروية ترويج مبادئ الثقافة الكسروية في طاعة الحاكم عند جماهير المسلمين، وأبرز هؤلاء المروجين سالم أبو العلاء، وعبد الحميد الكاتب، وعبدالله المقفع، عن طريق ترجمة «عهد أردشير»، و«كليلة ودمنة»، لكنهم لم ينجحوا؛ لأن

العلماء القائمين على المنظومة الثقافية الإسلامية المتصادمة مع الثقافة الكسروية كانوا واعين مخلصين لعناصر منظومتهم الثقافية الإسلامية، وبقوا منافحين عنها بعلمهم وسلوكهم كما رأينا في سيرة الأئمة الأربعة، وفي سيرة علماء آخرين من بعدهم من مثل: النووي، والذهبي، والعز بن عبد السلام، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير إلخ...

***

الخلاصة

إن أهم ركن في ديمومة الاستبداد هو الثقافة التي يستخدمها المُستَبِدّون في تطويع الجماهير المُستَبَدّ بها، وقد قامت عدة منظومات ثقافية تؤسس للاستبداد قبل قيام الإسلام وأثناء قيام دولته، وأبرزها ثلاث منظومات ثقافية: المنظومة الفارسية، والكنسية، والحق الإلهي للملوك.

وعندما قام الإسلام جاء بثقافة مناقضة لأصول ثقافة الاستبداد، وحاول بعض أنصار الثقافة الكسروية الترويج لثقافتهم عند جماهير المسلمين لكنهم لم ينجحوا في ترسيخ أدبياتهم في فضائنا الثقافي، وذلك لوجود علماء وفقهاء واعين لعناصر المنظومة الثقافية الإسلامية من جهة، متصدين لتلك الثقافة الكسروية بأقلامهم وأجسادهم من جهة ثانية.

***

المبحث الثالث

المستبدون والمواجهة: موسى عليه السلام نموذجًا

إن الاستبداد والمستبدين يقومون على عدة معان وصفات هي:

الانفراد بالرأي وعدم المشاورة:

إن من أبرز صفات الحكام المستبدين (الدكتاتوريين)، هي الانفراد بالرأي وعدم المشاورة، وذلك ناتج عن عدة عوامل، أبرزها: تضخم ذواتهم، وعدم احترام شعوبهم. والشواهد على الانفراد بالرأي أكثر من أن تحصى، فقد جاءت كل قرارات القذافي فيما يتعلق بانحسار التوجه العربي وتضخم التوجه الأفريقي، وإثارة الحروب مع تشاد وغيرها، دون تشاور مع أحد، وكذلك فعل صدام حسين، فعندما احتل الكويت عام ١٩٩٠ لم يطلع إلا ثلاثة أشخاص على هذا القرار مع أنه قرار مصيري مرتبط بمصير العراق وشعبه.

قهر الشعوب وإخضاعها بالقوة والسيطرة عليها:

قامت علاقة الحكام المستبدين (الدكتاتوريين) مع شعوبهم على القهر والإخضاع بالقوة، واستخدموا في سبيل ذلك الجيش والشرطة وأجهزة المخابرات، فعلى سبيل المثال هناك في سورية أربعة عشر جهاز مخابرات، ويقدر عدد المرتبطين بأجهزة المخابرات بمئات الآلاف من الأشخاص، وتنفق على هذه الأجهزة معظم ميزانية الدولة السورية، وقس على ذلك في بقية الدول.

وسبب ذلك يعود إلى غربة الحكام عن شعوبهم، وعدم امتلاكهم الشرعية في حكمهم، وافتقاد التواصل الفكري والثقافي بينهم وبين شعوبهم، والقفز إلى السلطة عن طريق الدبابة، وإبعاد المناوئين، وإلجام المعارضين.

الاستئثار بالمال والثروة:

استأثر الحكام المستبدون (الدكتاتوريون) في كل الدول التي ذكرناها بأموال الدولة، وتصرفوا فيها وكأنها ثرواتهم الشخصية التي ورثوها عن آبائهم دون خجل، وأنفقوها على أشخاصهم وأسرهم وأعطوا الفتات لمحاربيهم وأعوانهم.

وهناك عشرات الأدلة على ذلك، فمن استئثار القذافي بثروة ليبيا الخيالية وتوزيعها على أولاده، إلى زين العابدين بن علي الذي أودع المليارات في بنوك أوروبا، إلى علي عبد الله صالح الذي أودع المليارات ـ كذلك ـ في بنوك عمان والإمارات وأوروبا إلخ...

الاستحواذ على السلطة بكل ألوانها ومجالاتها:

استحوذ الحكام المستبدون على السلطة بكل ألوانها العسكرية والسياسية والإعلامية والمالية...، وفي كل مستوياتها، فهي تبدأ بهم وتنتهي إليهم، ولم يتركوا لأحد جانبًا منها.

تفشي الظلم وغياب العدل:

لقد تفشى الظلم في المجتمعات التي حكمها المستبدون، وذلك ناتج من استحواذهم على السلطة بكل أنواعها وعدم إعطاء الفرصة لجماهير الشعوب للتعبير عن رأيهم، وعدم إعطاء الشعب فرصة للتظلم، وعدم وجود القضاء المستقل وخضوعه الكامل للسلطة الحاكمة.

تعميم الفقر على جمهور الشعب:

لقد تدهورت مستويات المعيشة لدى عموم الشعوب في دول الحكومات المستبدة وتجاوزت أرقامها خطوط الفقر التي رسمها البنك الدولي، وإن مدن الصفيح والسكن العشوائي التي تحيط بالمدن الكبيرة هي ظاهرة بارزة في معظم المدن التي حكمها الطغاة المستبدون، وخير مثال على ذلك مقابر القاهرة التي يعيش فيها الآن أكثر من مليون شخص.

من الملفت للنظر أن كل الصفات التي قام عليها الاستبداد والمستبدون، نجدها واضحة في فرعون الذي تواجه مع موسى عليه السلام، فقد اتصف فرعون بالانفراد بالرأي وفرضه على الرعية، فقال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. واتصف فرعون بأن علاقته بشعبه هي علاقة قهر وقتل واستعباد واستعلاء... فقال جل جلاله: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وكذلك اتصف فرعون بالاستئثار بأموال مصر فقال جل جلاله: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

دروس من قصة النبيِّ موسى عليه السلام:

من الجدير بالملاحظة أن قصة موسى عليه السلام مع فرعون من أكثر القصص ورودًا في القرآن الكريم، والأرجح أن الحكمة من وراء ذلك توضيح أمر المستبدين، وإجلاء صور استبدادهم ومساوئه وآثاره، والتحذير منه، ليس ذلك فحسب بل قصد القرآن الكريم من ذكر تلك القصة، والحديث عن تفاصيلها، تعليم الأمة كيفية مواجهة أولئك المستبدين، وتعليم الأمة سبل الانتصار عليهم.

ففي مجال تعليم الأمة مواجهة أولئك الطغاة المستبدين كان موسى عليه السلام هو المثال الأوضح في هذا الصعيد، فقد أمره الله أن يذهب إلى فرعون ويواجهه فقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٥ ـ ١٩]. وقال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه، ٤٣ ـ ٤٦].

فكان الدرس الأول الذي تعلمه موسى عليه السلام ـ وتعلمناه معه ـ هو الاستجابة لأمر الله في مواجهة المستبدين، وقد بين الله لنا وله العدة التي يمكن أن تقيه في تلك المواجهة

وهي استحضار معية الله كما وضحت الآيات السابقة، لذلك عندما لحق فرعون موسى عليه السلام، وخوّفه قومه من وصول فرعون إليهم، استنكر موسى عليه السلام تخويفهم له بلحاق فرعون بهم، وأجابهم بأن الله معه سيهديه ويحفظه من جيش فرعون، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١ ـ ٦٢].

تبين لنا قصة موسى عليه السلام مع فرعون أمرًا أساسيًا، وهو أن بناء الإنسان هو اللبنة الأولى في مواجهة الطاغوت المستبد، وهذا البناء يقوم على البناء النفسي السليم وعلى معرفة الله جل جلاله المعرفة الحقة بكل قوته وقدرته وعلمه وجبروته جل جلاله، ثم يأتي استحضار معيته في هذه المواجهة، لأنه لن يكون هناك صمود وانتصار دون حصول هذا البناء النفسي.

أما الدرس الثاني الذي يمكن أن نستفيده من قصة موسى عليه السلام مع فرعون، هو ضرورة إعداد نخبة قيادية، كي تعين القائد في مواجهة المستبد، لذلك اتجه موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، فآمنت نخبة قليلة العدد وكانت تخاف بطش فرعون قال جل جلاله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، ثم بينت قصة موسى عليه السلام محاور إعداد هذه النخبة القيادية، وشملت هذه المحاور: التوكل على الله، والصلاة، واتخاذ بعض البيوت مساجد... قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٤ ـ ٨٧].

وأما الدرس الثالث الذي يمكن أن نستفيده من قصة موسى عليه السلام، فهو أن زوال المستبد الطاغية من حياة الشعوب المستعبدة، لا يكفي لتحريرها، بل لا بد من عملية أخرى وهي زوال الاستبداد من قلوب وعقول الشعوب التي خضعت للاستبداد؛

لأن الاستبداد يفسد القلوب والعقول والأذواق، ويدل على ذلك تعامل بني إسرائيل مع موسى عليه السلام في المرحلة التالية لتحريرهم.

حرر موسى عليه السلام بني إسرائيل من استعباد فرعون لهم، وخلصهم من بطشه وجوره وعسفه، ورأوا الآيات البينات على ذلك في عدة أماكن: في مواجهة موسى عليه السلام مع السحرة عندما حول الله عصاه إلى حية أبطلت سحر الساحرين، وفي مواجهة البحر عندما أمره الله بضرب البحر بعصاه فانشق البحر عن اثني عشر طريقًا لعبور بني إسرائيل، ومع ذلك لم يطيعوا موسى عليه السلام في شيء بعد ذلك، لأن الاستبداد أفسد عقولهم، فعندما رأوا الأقوام الأخرى تعبد آلهة متعددة طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا كما لهذه الأقوام آلهة، وهذا مناف للتوحيد الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

وأفسد الاستبداد نفوس بني إسرائيل وقلوبهم، وأورثهم مخالفة الأوامر والعصيان، فعندما طلب منهم موسى عليه السلام أن يقولوا «حطّة» قالوا «حنطة»، وعندما طلب منهم أن يدخلوا القرية سجدًا دخلوها على أدبارهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

وعندما طلب من بني إسرائيل أن يدخلوا الأرض المقدسة التي وعدهم الله إياها رفضوا ذلك لفساد قلوبهم وعقولهم، ولأن الجبن والذلة قد تجذرا في نفوسهم وقلوبهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم

﴿مُلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٠ ـ ٢٤]، لذلك جاء الأمر الإلهي بأن يتيهوا أربعين سنة من أجل تطهير قلوبهم ونفوسهم من هذه الأمراض التي أورثهم ـ إياها ـ الاستبداد، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥ ـ ٢٦].

ولم يفسد الاستبداد عقول بني إسرائيل وقلوبهم فقط، بل أفسد أذواقهم، فعندما أعطاهم الله المن والسلوى، وهما طعامان من أفخر الأطعمة وأفضلها، طلبوا القثاء والفوم والعدس والبصل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

لذلك فإن أبرز درس نستفيده من قصة موسى عليه السلام مع فرعون هو أن مفعول الاستبداد لا ينتهي بزوال المستبد، بل قد يستمر مع الشعوب، لذلك لا بد من انتزاع المستبد من عقول وقلوب الشعوب المستعبدة، وذلك من خلال عملية بناء، وتحتاج خطة وإعدادًا وتأهيلًا نفسيًا وعقليًا، وهذا أخطر ما يورثه المستبد للشعوب كما وضحت الآيات الكريمة، وهذا ما يجب أن تقوم به القيادة التي خلصت جماهير الشعب من المستبد الطاغية.

❊ ❊ ❊

الخلاصة

إن الاستبداد جريمة كبرى في حق أبناء أمتنا وشعوبنا، وقد ثارت شعوبنا على هذه النظم المستبدة، وأفلحت في قلع بعضها ولم تفلح في قلع بعضها الآخر، وقد جاءت قصة موسى عليه السلام مع فرعون في القرآن الكريم دالة على وجوب تحرير الشعوب من المستبدين، كما فعل موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، ولكن القرآن الكريم وضح من خلال قصة موسى عليه السلام أيضًا أمورًا أخرى، منها: كيفية بناء النفوس لمواجهة المستبدين، وأشار كذلك إلى وجوب القيام بأمرين، اقتلاع المستبد من جهة، واقتلاعه ـ بعد ذلك ـ من قلوب وعقول المستعبدين من جهة ثانية، لأنه لا ينتهي مفعول الاستبداد بزوال المستبد، بل تبقى أمراض الاستبداد متغلغلة في عقول ونفوس الجماهير التي خضعت للاستبداد.

❊❊❊

المبحث الرابع

دور الدستور والمؤسسات المدنية في إبطال مفعول الاستبداد

يصف كتاب كثيرون تاريخنا بأنه تاريخ استبداد، وإذا أرادوا أن يكونوا كرماء حسب زعمهم فإنهم يستثنون منه فترة بسيطة وهي فترة الخلفاء الراشدين وفترات لأسماء أخرى معروفة مثل فترة عمر بن عبد العزيز رحمه الله، وقد اعتبر بعض هؤلاء الكتّاب بأن الاستبداد هو السبب في كل أمراضنا الاجتماعية الأخرى، وهو الذي أفسد حياتنا كلها، وهو السبب الرئيسي في تأخرنا وانحطاطنا، ومما يؤكد ذلك تخصيص كاتب مثل عبد الرحمن الكواكبي كتابًا لذلك المفهوم سماه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ألّفه عام ١٩٠٢م.

ومشكلتنا مع أولئك الباحثين أنهم لا يصدرون أحكامهم على تاريخنا انطلاقًا من الدراسات المعمقة والمستقلة لذلك التاريخ، بل يسقطون عليه الأحكام الخاصة بتاريخ الحضارة الغربية من مثل صراع العلم والدين، والانحطاط، ورجال التنوير، والنهضة إلخ... أو يسقطون عليه نظريات غربية خاصة لتحليل التاريخ الغربي كالماركسية فتجد أحكامًا من مثل طبقة البروليتاريا، وطبقة البورجوازية، والصراع الطبقي، وديكتاتورية البروليتاريا إلخ... فتكون النتيجة ظلم تاريخنا وظلم الحقيقة وظلم تلك المصطلحات والأحكام.

وفي مجال حديثنا عن الاستبداد تصبح الديمقراطية الغربية هي النموذج البديل المطلوب، فإن لم تكن موجودة بكل تفصيلاتها الحالية من أحزاب وانتخابات وبرلمان ووزارة مسؤولة أمام البرلمان إلخ... جرى الحكم على تاريخ الأمة بنقيض ذلك وهو الاستبداد.

وطالما أننا نتحدث عن الديمقراطية نتساءل: ما الذي تستهدفه الديمقراطية وغيرها من أنظمة الحكم السياسي؟ الجواب: إقامة العدل، وتحقيق المساواة، وإعطاء الفرص

لجميع أبناء الأمة في تبادل الرأي حول شؤونها، وإعطائهم الفرصة كذلك للمساهمة في حلّ قضاياها إلخ...

وهذه الأهداف يمكن أن تتحقق بآليات متعددة، وليست مقصورة على الآليات التي صاغها النظام الديمقراطي. لذلك فإن تاريخنا السياسي قد ظلم ـ في تقديري ـ من ثلاث نواح: الأولى: إسقاط كثير من الأحكام الخاصة بالحضارة الغربية عليه، الثانية: عدم دراسة مسيرته السياسية بشكل مستقل، الثالثة: جعل النموذج الغربي الحالي هو الذي تُقوّم على أساسه حضارتنا وتاريخنا في الاقتصاد والاجتماع والسياسة إلخ...

والآن لنر: من أين جاء مفهوم الاستبداد؟ وهل يمكن تطبيقه على تاريخنا؟ وكيف جرى الحكم في تاريخنا؟ وما أبرز آلياته؟

دور الدستور في ضبط علاقة الحاكم بالمحكوم

جاء مفهوم الاستبداد من النظام الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى حيث كان يملك الإقطاعي فيه الأرض ومن عليها من بشر وحيوان ونبات وشجر، ويتحكم فيهم حسب أهوائه ومزاجه وحسب ما يروق له دون وجود لقانون يرسم أفقًا أو حدًا لتصرفاته وأعماله، لذلك عندما جاءت الثورات التي انبثقت عن المرحلة البرجوازية وحملت معها الدستور، اعتبرت هذه الوثيقة (الدستور) التي تحدّد بعض جوانب العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتبيّن واجبات الحاكم والمحكوم وحقوقهما، اعتبرت نهاية لعهد الاستبداد لأنها انتقلت في العلاقة بين الحاكم والمحكوم من العلاقة غير المحددة بأية قواعد أو ضوابط إلى العلاقة المحددة ببعض القواعد والضوابط، ولكن هذه الخاصية كانت موجودة منذ اللحظة الأولى في تاريخنا حيث كان القرآن الكريم دستورًا لأمتنا لم يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم فحسب، بل فصّل علاقة الحاكم بالمحكوم وبيّن واجبات الحاكم، من مثل: وجوب الشورى، وإقامة الصلاة، وجباية الزكاة وتوزيعها في

مصارفها المحدّدة، ونشر الدين، وتحديد العقوبات التي يمكن أن يوقعها الحاكم على المحكومين من مثل: حد السرقة، وحد الزنا، وحد الحرابة، وحد شرب المسكرات إلخ... وبيّن واجبات المحكوم من مثل: الطاعة طالما أن الحاكم مطيع الله ورسوله ﷺ، والنصح للحاكم، ودفع الزكاة، والاستجابة لداعي الجهاد إلخ... إذن هذه التحديدات التي شرعها الإسلام في مجالات الحاكم والمحكوم وفي العلاقة بينهما وفي علاقتهما بالآخرين أزالت سببًا رئيسيًا من أسباب الاستبداد، والآن لنر: كيف كانت علاقة الحاكم بالمحكوم والراعي بالرعية على مدار القرون السابقة؟

لقد أنشأ الرسول محمد ﷺ الأمة الإسلامية، وقامت علاقته مع رعيته ﷺ على العدل والمساواة والشورى والرحمة والرأفة والحكمة والعلم إلخ... وكانت نموذجًا للعلاقة المثالية بين الحاكم والمحكوم ولن نفصّل في صورتها وحيثيّاتها لأن خصومنا أو مجادلينا قد يحتجون بأنه لا مجال للمحاججة بخصوص علاقة الرسول ﷺ بالصحابة لأنه نبي تسدّد السماء علاقته برعيته، وينـزل عليه جبريل بالحق بخصوصها. وأما الخلفاء الراشدون فيسلّم معظم الدارسين بأن العلاقة بينهم وبين رعيتهم كانت سليمة ومشرقة وإيجابية وقريبة من صورة علاقة الرسول ﷺ بصحابته ﷺ وحققت العدل والمساواة والشورى والرحمة إلخ... لذلك لن نخوض في تفاصيلها طالما أنها ليست مجال اختلاف، لكن العصور التالية هي مجال الاتهام بالاستبداد، ونحن من أجل تقرير وجهة نظر صائبة في هذا الموضوع لن نستطيع أن نستقصي في هذا المقال كل وقائع التاريخ الأموي والعباسي والمملوكي والعثماني من أجل استخلاص أحكام دقيقة في مجال الحكم من جهة، ولن نستطيع أن نستقصي كل تفصيلات علاقات الحاكم الإسلامي برعيته خلال كل ذلك التاريخ الطويل من أجل تقرير مدى قربها أو بعدها عن الاستبداد من جهة ثانية، فذلك يحتاج إلى دراسات متعددة نسأل الله العون على تدوينها في أيام قادمه، لكن يكفي في هذا

المقال إعطاء مؤشرات عن اتجاه الحكم وعن مدى سلامة علاقة الحاكم بالمحكوم في ذلك التاريخ الطويل، وهو ما سنجتهد أن نقوم به.

مؤسسة العلماء

تميزت فترة الخلافة الراشدة بأن الخلفاء الراشدين ﷺ كانوا أمراء الأمة وعلماءها في الوقت نفسه، لكن العهد الأموي شهد ظهور قيادتين للأمة هما: قيادة الأمراء وقيادة العلماء، ثم استمر الأمر على هذه المنوال في العهود التالية: العباسية، والمملوكية، والعثمانية، وقد كانت قيادة الأمراء تأخذ شرعيتها من التزامها بالشريعة الإسلامية، وهذا ما يمكن أن نعتبره أول عامل ينفي عنها صفة الاستبداد ـ كما وضحنا ذلك في بداية الحديث ـ لأنه كان يحدّد علاقتها برعيتها، ويوضح واجبات وحقوق الطرفين: الراعي والرعية، كما أنها (أي قيادة الأمراء) لم تكن تنفرد بقيادة جماهير المسلمين، بل كانت قيادة العلماء تشاركها في هذه القيادة من جهة، وتحاسبها على كثير من تصرفاتها من جهة ثانية، مما يقلل من حجم ظلمها وفرصه، ولا أريد أن أعدد أسماء العلماء الذين ساهموا في قيادة المسلمين على مدار التاريخ الماضي أو أعدد المواقف التي تشير إلى محاسبتهم الأمراء، فالتاريخ مملوء بشواهد تدل على الأمرين السابقين، والأمر أجلى وأوضح من أن يحتاج إلى تعداد أو تدليل، ويكفي أن نذكر اسمين هما العز بن عبد السلام وابن تيمية، ودورهما في تحريك الأحداث وتوجيهها في عصرهما.

ومما تجدر الإشارة إليه أن قيادة العلماء لم تبق في صورة أشخاص إنما تحوّلت إلى أشبه ما يكون بالمؤسسة مع مرور الزمن فأصبحت هذه القيادة تحتوي عدة وظائف في العهد العثماني، منها: شيخ الإسلام الذي كان يسكن عاصمة الخلافة إستانبول، ويأتي ترتيبه الثاني في البروتوكول الرسمي بعد الخليفة وقبل الصدر الأعظم الذي هو رئيس الوزراء، ومنها أيضًا: القضاة، والفقهاء، ونقباء الأشراف، وخطباء المساجد

وأئمتهـا، والمؤذنـون والخدمـة، والقـرّاء، والوعّاظ إلـخ... وكان هؤلاء يأخـذون رواتبهم من خـلال الأوقاف.

مؤسسة القضاة

وكان القضاة يقومون بالإضافة إلى قضائهم في الخصومات الشخصية والتجارية، بتثبيت مشايخ الحرف وفض منازعاتهم، وكان القضاة بمثابة حكام شرعيين للأمة، وكانوا يقومون بدور صلة الوصل بين الوالي والأهالي، فينقلون أحكام الوالي إلى الأهالي، وينقلون رغبات الأهالي وطلباتهم إلى الوالي.

وبالإضافة إلى قيادة العلماء التي نافست الأمراء على نفوذهم عند جماهير المسلمين، وشاركتهم في هذا النفوذ، ومنعت انفرادهم بالسلطة، برزت قيادات مدنية أخرى في المجتمع الإسلامي كانت تؤدي دورًا أخلاقيًا أو اقتصاديًا أو رقابيًا أو ثقافيًا أو اجتماعيًا إلخ...، ومن هذه القيادات التي تطورت على مدار التاريخ الإسلامي: التنظيمات الحرفية، والطرق الصوفية، والحسبة، والأوقاف، وسأشير باختصار إلى دور كل منها خلال العهد العثماني لأنه ـ كما قلت ـ العهد الأكثر اتهامًا من غيره بالاستبداد.

مؤسسات شيوخ الحرف

فمن دراسة الحرف والصناعات نجد أن كل حرفة كانت تختار شيخها المناسب بإرادتها الذاتية المحلية، وكانت سلطة شيخ الطائفة تشمل إدارة شؤون أبناء الطائفة، والاهتمام بمشاكلهم، والإشراف على تنفيذ اتفاقاتهم، والطلب من القاضي تسجيل هذه الاتفاقات، وكان يرفع شكاوى الطائفة على طائفة أخرى إلى القاضي بنفسه، وكان الوالي يتصل بأصحاب الحرفة عن طريقه.

وكان شيخ الحرفة يمارس سلطته اعتمادًا على العلاقات التنظيمية والأخوية الصادقة التي كانت تربطه بأبناء الطائفة، فعلى المستوى التقني والتنظيمي يخضع التعليم الحرفي

لتراتبية دقيقة بدءًا من المبتدئين إلى الصانع وإلى المعلم. وعلى قاعدة هذه التراتبية لشيخ الحرفة الحق في أن يشدّ بالكار (الصنعة) المبتدئين الماهرين فيصيرون صناعًا أو معلمين. وحفلة الشدّ حفلة ترفيع المبتدئ إلى صانع أو الصانع إلى معلّم، هي حفلة ذات طابع ديني، ويظهر ذلك في قراءة «الفاتحة» والأدعية والأناشيد النبوية التي تتخلّل الحفلة، وإسباغ جو من الورع والتقوى على «المشدود» والحاضرين، والتشديد على «العهد» و«الميثاق» و«الأخوة» أمام الله والجماعة، وكان المشدود يعاهد المعلم على أن يلتزم بقواعد منها: الإتقان، عدم الغش، والتسعيرة العادلة، التضامن مع رفاق المهنة إلخ...

وكان هناك «شيخ مشايخ الحرف أو شيخ التجار» وكان يعيّن بإجماع التجار، ويشترط فيه أن يكون صاحب دين وأخلاق أهلًا للمشيخة لائقًا بها، وأن يختاره ويرضى به كامل التجار، وأن يوافق القاضي والسلطان على تعيينه، وكانت مهمة هذا الشيخ تشمل الإشراف على كل طوائف الحرف ومشايخها، ويقوم بصلة الوصل بين الوالي والقاضي من جهة، وهذه الطوائف من جهة أخرى، ولا يتم أي تغيير إلا بعلمه ورأيه، وكان مشايخ الحرف كلهم يُنتخبون بحضوره ويُزكّون بتزكيته.

مؤسسة الحسبة

نشأت الحسبة في مرحلة مبكرة من تاريخ المجتمع الإسلامي، ثم تطوّرت فأصبح يرأسها محتسب ومعه محتسبون معاونون، مهمتهم المحافظة على الآداب والأخلاق والنظافة والحشمة ومنع الغش وعدم الاختلاط... وقد كانت تهدف أن تجعل الأخلاق الإسلامية سجية وطبعًا ليبقى المجتمع محافظًا على شخصيته وهويته.

مؤسسة الأوقاف

أما الأوقاف فقد شغلت ثلث ثروة العالم الإسلامي وقامت بدور اجتماعي وثقافي واقتصادي، فقد أنشأت المدارس والمكتبات، وأنفقت على العلماء وطلاب العلم، كما

كلفت بعض العاملين بنسخ الكتب من أجل إيقافها على طلاب العلم، كما أنشأت الأوقاف المستشفيات التي كانت تعالج الناس مجانًا، كما أنشأت الخانات التي كانت تؤوي الناس على الطرقات، كما أوقفت الدور التي تساعد الفقراء وتؤويهم وتطعمهم إلخ...

***

الخلاصة

لم تعرف أمتنا الاستبداد بالصورة التي عرفها المجتمع الإقطاعي الغربي في العصور الوسطى، ومثّل التزام الأمراء المسلمين بتنفيذ الشريعة الإسلامية الشرط الأول لمنحهم الشرعية من قبل الأمة، كما مثل هذا الالتزام نفيًا للاستبداد؛ لأنه الوثيقة الدستورية التي اعتبر الغرب وجود مثلها إنهاء للاستبداد في حياته السياسية، وقامت قيادة العلماء بدور القيادة الموازية لقيادة الأمراء على مدار التاريخ الإسلامي مما جعلها تواجه ظلم الأمراء فتقلل من حجمه حينًا، وتبطله حينًا آخر، كما قامت مؤسسات وروابط أخرى من مثل: المنظمات الحرفية، والحسبة، والأوقاف، بدور الوسيط بين جماهير المسلمين والقيادة الحاكمة حينًا، وتوسيع هامش الاستقلال في حياتهم حينًا آخر، وإبعادهم عن تدخلات الأمراء حينًا ثالثًا، وفي كل الأحوال قامت تلك المؤسسات والروابط والقيادات بإغناء الجانب المدني والثقافي والاقتصادي والاجتماعي والرقابي في حياة جماهير المسلمين إغناء فريدًا، ورعايته وتوسيع دائرته.

***

آفاق حول موضوع الاستبداد

قدمنا في الفصل الثامن أربعة مباحث عن الشورى والاستبداد، تحدث المبحث الأول عن الشورى في تاريخنا، وبيَّن العوامل التي دفعت الصحابة رضي الله عنهم إلى إقرار معاوية رضي الله عنه على توريث ابنه، وأؤكد هنا أن هذا التحول في هذا الموقع لا يعني انتفاء الشورى في مجالات حياتنا الأخرى، بل كانت موجودة في كل المجالات، فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت هناك مجالس شورى في عهد المماليك لكل الأمور العلمية والعسكرية والمالية والتعليمية والقضائية[1]،

أما البحث الثاني «تسريح الاستبداد» فقد وضح دور ثقافة الاستبداد في ترسيخ المسند، وأن الاسلام يعطي المسلم مناعة مضادة للاستبداد، ويبني في النهاية مسلمًا غير قابل للاستبداد.

أما البحث الثالث فهو «المستبدون والمواجهة» فقد أعطانا النبي موسى عليه السلام نموذجًا عمليًّا من خلال شخصيته عليه السلام في مواجهة المستبدين والعدة اللازمة لذلك.

أما البحث الرابع «دور الدستور والمؤسسات المدنية في إبطال مفعول الاستبداد» فقد وضح دور كل من الدستور ومؤسسات الوقف والحسبة والقضاء وغيرها في مواجهة الاستبداد.

وبهذا تكون هذه المباحث الأربعة، وضحت جوانب من حياتنا الاجتماعية والسياسية، وأكدت أنها بعيدة كل البعد عن الاستبداد بالمعنى الذي عرفته الحضارة الغربية والكسروية.

***

(١) انظر تفصيلاً لمجالس الشورى في كتاب «مجالس الشورى في عصر سلاطين المماليك ١٢٥٠ ـ ١٥١٧» للدكتور عثمان علي عطا.

الفصل التاسع

مفهوم الانحطاط: عرض وتفنيد

اتهم بعض الدارسين فترتي حكم المماليك والعثمانيين بأنهما فترتا انحطاط، بمعنى موات الجانب العقلي والعلمي والجماعي في وجودنا وحياتنا، فهل هذا الحكم صحيح؟ لا شك أن هذا الحكم غير صحيح، وهذا ما حاولت أن أوضحه في هذا الفصل.

قسم بعض الدارسين تاريخنا إلى عدة عصور، هي: عصر النشأة الذي بدأ مع قيام دولة الرسول ﷺ في المدينة ودولة الخلفاء الراشدين، ثم عصر الترجمة، فعصر الازدهار والإبداع الفكري، وقد بلغ أوجه في عهد المأمون، ثم عصر الانحطاط والجمود الفكري، وقد سادفي عهد المماليك والعثمانيين، ثم عصر النهضة الذي بدأ بنابليون بونابرت عندما غزا مصر عام ١٧٩٨.

واعتبروا أن عصر الانحطاط تمثل بأمرين هما:

الأول: الانحطاط الفكري والعلمي، ويعني توقف العقل الإسلامي عن الإبداع العلمي والنمو الفكري.

الثاني: الانحطاط الاجتماعي، وهو تفكك المجتمع، وظهور الفردية والأنانية، وعدم فاعلية المجتمع، والروابط الاجتماعية، وانعدام القدرة على البناء ومواجهة الأزمات.

أما أبرز المتحدثين عن الانحطاط فهما كاتبان:

١ ـ مالك بن نبي.

٢ ـ محمد عابد الجابري.

وسنعرض آراءهما وأفكارهما حول الانحطاط وأسبابه.

مالك بن نبي

اعتبر مالك بن نبي في كتبه التي عنونها بسلسلة «مشكلات الحضارة» أن عوامل التعارض الداخلية في المجتمع الإسلامي قد بلغت ذروتها في نهاية «دولة الموحدين»، ولم يعد الإنسان والتراب والوقت، عوامل الحضارة، بل أصبحت عناصر خامدة، ليس بينها صلة مبدعة، وقد أدى هذا التعارض إلى الانحطاط الاجتماعي الذي يتجلى في الانحطاط الأخلاقي وتفرق المجتمع الذي يؤدي إلى الفشل من الناحية الأدبية.

محمد عابد الجابري

طرح محمد عابد الجابري أراءه عن الانحطاط العلمي، وتوقف الأمة عن الإبداع في سلسلة كتبه عن العقل العربي وأبرزها كتابان «تكوين العقل العربي» و«بنية العقل العربي».

لقد درس الجابري في كتابه «بنية العقل العربي» الأنظمة التي شكلت العقل العربي، وحددها بثلاثة، وهي: البيان، العرفان، البرهان. واعتبر أن هذه الأنظمة المعرفية تداخلت مع بعضها، وأصبحت تشكل تلفيقًا معطلًا، واعتبر أزمة أبي حامد الغزالي التي أدت إلى اضطرابه واعتزاله وغيابه عن الساحة العلمية لمدة عشر سنين، مثالًا على هذا التداخل التلفيقي بين الأنظمة المعرفية الثلاثة وعدم استطاعته التوفيق بينها.

وقد أشار الجابري إلى لحظتين متميزتين في تاريخ العقل العربي:

الأولى: تمتد من بدايات عصر تشكيل العقل العربي إلـى لحظة الغزالي التي كان فيها العقل منتجًا ومبدعًا.

الثانية: ما بعد لحظة الغزالي التي تعطل فيها العقل العربي، وأصبح جامدًا وغير مبدع

وغير فعال ومنتج، وبدأ الانحطاط العلمي منذ تلك اللحظة.

والسبب في ذلك هو التداخل التلفيقي بين الأنظمة المعرفية الثلاثة: البيان والعرفان والبرهان، وعدم قدرة العقل العربي على التوفيق بين هذه الأنظمة توفيقًا سليمًا.

ومن المؤكد أن النظر الفاحص لتاريخنا ينفي أقوال مالك بن نبي، ومحمد عابد الجابري، ويؤكد أنه لم يكن هناك انحطاط بالمعاني التي حددناها وهي موات جانبين:

١ ـ الجانب الجماعي والاجتماعي.

٢ ـ الجانب العقلي والعلمي.

الجانب الجماعي والاجتماعي

أما بالنسبة للناحية الاجتماعية والجماعية فمن المعلوم أن الأمة بعد عهد الموحدين (٥١٥ ـ ٦٦٧هـ) استطاعت أن تصد الهجومين الصليبي والتتري المغولي عام ٦٥٨ هـ، وتنهيهما، فقد صد المماليك الهجوم المغولي التتري وانتصروا عليهم في معركة عين جالوت عام ١٢٦٠م التي قادها المملوكي قطز، ثم أكمل المماليك انتصارات صلاح الدين الأيوبي، فطردوا الصليبيين من عكا في ساحل فلسطين في عام ١٢٩١م وكانت تلك الانتصارات بقيادة المملوكي الأشرف خليل.

ثم جاءت الخلافة العثمانية، وبسطت نفوذها على العالم العربي، وخاض السلطان سليم معركة مرج دابق عام ١٥١٦م، وقتل السلطان قانصوه الغوري، وأنهى وجود آخر حاكم مملوكي لمصر، كما دخل مصر عام ١٥١٧م، وبعد ذلك صارت الخلافة العثمانية أقدر على مواجهة أوروبا، بعد أن أمنت ظهرها بقيادتها للعالم العربي.

ثم توجهت الخلافة العثمانية إلى محاربة أوروبا واستطاعت بسط نفوذها على أوروبا

الشرقية من بلاد اليونان والبلغار والصرب، ووصلت إلى فيينا وسط أوروبا مرتين الأولى عام ١٥٢٩م، والثانية عام ١٦٨٣م.

الجانب العلمي

أما الناحية العلمية فإن الإبداع لم يتوقف في عصر المماليك والعثمانيين، ففي مجال العلوم النقلية فإن عصر المماليك شهد حضور عدد كبير من العلماء الكبار من أمثال ابن تيمية والعز بن عبد السلام. والقرافي وابن حجر العسقلاني وابن منظور والقلقشندي الذين كتبوا عشرات الكتب التي تعتبر مراجع في التاريخ الفكري والديني للأمة في مجال الرد على المنطق اليوناني والفلسفة، والتأصيل لعلوم السنة النبوية، وتدوين المعاجم والتفسير، وشرح الحديث، والتاريخ وفي مجال تبيان عدم تعارض العقل والنقل إلخ...، كما تم اختراع وابتكار عدد من العلوم في هذه الفترة التاريخية، فقد ابتكر ابن خلدون علم العمران، كما ابتكر الشاطبي علم المقاصد.

الجانب العقلي

وفي مجال العلوم العقلية، فقد ألف الدكتور جورج صليبا في كتاب «الفكر العلمي العربي: نشأته وتطوره» الذي درس علم الفلك في الحضارة الإسلامية، وهو من أرقى المتخصصين في علم الفلك في العصر الحديث، فوجد أن علم الفلك لم يشهد انحطاطًا في عصري المماليك والعثمانيين، بل شهد اختراعًا لنظريات جديدة، وردودًا على بطليموس، ورقيًا فاق العصور السابقة، وذكر أسماء متعددة في هذا المجال، ومنها: شمس الدين الخفري (ت ٩٥٧هـ)، الذي كان يقيم في دمشق، وكان معاصرًا لكوبرنيكوس، والذي كان يتحلى بمقدرة رياضية ودراية في دور الرياضيات في صياغة العلوم، ندر أن يوجد مثلها في أعمال الذين أتوا قبل القرن السابع عشر.

واقترح جورج صليبا أن تدرس العلوم المختلفة من رياضيات وكيمياء وفيزياء وصيدلة وطب في عهدي المماليك والعثمانيين دراسة تفصيلية، كما درس هو علم الفلك، وأكد أن الدارسين سيجدون اختراعات وابتكارات وتقدمًا في العلم الذي يدرسونه، ينفي صفة الانحطاط عن عصري المماليك والعثمانيين.

أما العلوم الدنيوية فقد اكتشف العثمانيون وجود الجراثيم والميكروبات، وقاموا بمحاولات للطيران العادي والطيران النفاث، كما كانت المدفعية العثمانية أقوى مدفعية بلا منازع حتى عام ١٧٠٠م، كما صنع العثمانيون في زمن محمد الفاتح (١٤٣٢ـ١٤٨١م) مدافع جبارة تستطيع خرق سور من الحجر سماكته اثنا عشر مترًا، واخترع العثمانيون المدافع المتحركة ومدافع الهاون واستعملوها لأول مرة زمن السلطان سليم الأول.

وكانت صناعة السفن متقدمة أيضًا والأسطول العثماني ظل حتى عام ١٨٦٨ ثالث أقوى أسطول في العالم بعد الأسطولين الإنكليزي والفرنسي، كما اكتشف العثمانيون أمريكا قبل كريستوفر كولومبوس، واكتشفوا القطب الجنوبي ورسموا تضاريسه بالتفصيل.

كما أنشأ العثمانيون أول جامعة للطب في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي سموها (دار الطب)، ثم تم إنشاء المجمع الطبي في القرن الخامس عشر ومن رواده شرف الدين الصابونجي الأماسي العالم في الأدوات الجراحية والمطور لها، وداود الأنطاكي صاحب الدراسات عن المخ والكتاب الشهير حول الأدوية الطبيعية، وأخي جلبي صاحب الأبحاث حول المسالك البولية، وطبيب التوليد الشهير عياشلي شعبان، والعالم النفساني مؤمن السينوبي صاحب كتاب من ٢٥ مجلدًا حول الأمراض العقلية والنفسية والعصبية.

لم يكن هناك عصر انحطاط في تاريخنا، بمعنى موات الجانبين: العقلي والعلمي من جهة، والاجتماعي والجماعي من جهة ثانية، بل هناك ضعف وبعض الوهن والتأخر

الذي أصابنا في الجانبين العلمي والاجتماعي الجماعي بالمقارنة مع العصور السابقة، وكان بالإمكان تدارك ذلك الضعف والتأخر لولا مداهمة الاستعمار الغربي لمعظم بلادنا واحتلالها في القرنين التاسع عشر والعشرين، وزيادة حجم التأخر والضعف، ثم التخطيط لتدمير وحدتنا الثقافية، وتفتيت وحدتنا الاجتماعية والعرقية والسياسية، ونجح في ذلك في كثير من المواضع والأماكن بكل أسف.

من أين جاءنا هذا التحقيب والتقسيم لتاريخنا؟ أعني تحقيب تاريخنا إلى عصر نشأة، ثم عصر ازدهار، ثم عصر انحطاط، ثم عصر نهضة، لقد جاء هذا التقييم من الغرب وقام به المستشرقون من الغرب، والمتغربون من أبناء جلدتنا في الشرق، الذين أسقطوا تاريخ أوروبا على تاريخنا.

فقد عرف تاريخ أوروبا هذا التحقيب فعرف وجود عصر انحطاط، وهي العصور الوسطى التي سادت فيها الكنيسة، والطبقة الإقطاعية، ثم جاء عصر النهضة الذي أنقذ أوروبا من خرافات الكنيسة، وأطلق العقل من إساره، وبدأت الاختراعات العلمية، وأنهى دولة الحق الإلهي ليبدأ الحكم الجمهوري القائم على حرية الرأي والانتخابات.

***

الخلاصة

تحدث بعض الدارسين عن وجود عصر انحطاط في تاريخنا بمعنى: موات الناحيتين العلمية والاجتماعية في حضارتنا، وبخاصة في العهدين المملوكي والعثماني، وقد بيّنا خطأ هذا الحكم وعدم علميته وموضوعيته.

***

الخاتمة

طوفنا في الصفحات السابقة في واقع الحضارة الغربية، مبتدئين بنشأتها ومكوناتها، ثم عرجنا على مبادئها وأنظمتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلخ...، ثم تحدثنا عن تأثيرات الحضارة الغربية في عالمنا العربي واتخذنا مصر نموذجًا لذلك، ثم بينا الصور التي اعتمدها الغرب من أجل تعريب أمتنا، فكانت ثلاث صور:

الأولى: فرض نموذجه الحضاري.

الثانية: تطويع النص القرآني لصالح الحضارة الغربية من خلال القراءات الحداثية.

الثالثة: إصدار أحكام خاطئة على تاريخنا وحضارتنا.

بعد هذا الاستعراض المكثف لبنية الحضارة الغربية وتأثيراتها علينا، يمكن أن نستخلص حقيقتين فيما يتعلق بالحضارة الغربية، وهما:

الأولى: تدهور الحضارة الغربية:

تنتقل الحضارة الغربية من السيء إلى الأسوأ، في كل مجالاتها، فلو أخذنا العلمانية كمثال على ذلك لوجدنا أنها انتقلت من العلمانية الجزئية، إلى العلمانية الشاملة، إلى الداروينية الاجتماعية، ولقد اشتمل هذا التطور والتحول على غياب أية قيمة خارجية، فبعد أن فصلت «العلمانية الجزئية» السياسة عن الدين، بقيت هذه العلمانية تسترشد ببعض القيم الإنسانية من خارجها من مثل العدل والرحمة والتسامح إلخ...، لكن هذه القيم الخارجية اختفت في مرحلة «العلمانية الشاملة»، ثم أصبحت المادة هي الحقيقة الرئيسية التي تجمع

الكون والإنسان والطبيعة، وأصبحت قيم التطور والصراع هي التي تحكم هذه المادة، واختفت أي قيمة مرجعية خارج المادة، وصار كل شيء مرجعيته تنبثق من ذاته المادية، فالاقتصاد مرجعيته الربح والثراء فقط، والجنس مرجعيته اللذة والمتعة فقط إلخ...

الثانية: معاداة الحضارة الغربية للفطرة:

لقد دمرت معاداة الفطرة الحضارات السابقة، وأبرز مثالين في هذا المجال، هما:

الأول: الحضارة المسيحية في القرون الوسطى: أشرنا في الصفحات السابقة إلى موقف رجال الدين المسيحي والكنيسة المسيحية المعادي للفطرة في أمرين، هما: المرأة والشهوات والدنيا أولًا، والعلم والعلماء ثانيًا، وبينا كيفية تدمير هذين الخطأين لحضارة القرون الوسطى وانبثاق الثورة الفرنسية التي قامت نتيجة وقوع المجتمع في هذين الخطأين المعاديين للفطرة.

الثاني: سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠: قام الاتحاد السوفيتي ـ والذي امتد من وسط أوروبا غربًا وإلى المحيط الأطلسي ـ على الشيوعية بعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧م، ووقعت الشيوعية في خطأ معاداة الفطرة في أمرين، هما:

أ. الكفر بالله واعتبار الحياة مادة وإلغاء دور العبادة، والتنكر للمقدس وللعبادة في وجود الفرد وحياته.

ب. إلغاء التملك، واعتبار حب التملك فطرة مكتسبة وليست أصيلة.

ليس من شك بأن التعبد والإيمان بالله فطرة أصيلة في الإنسان لذلك عرفت كل المجتمعات على مدار التاريخ دور العبادة. وكذلك غرس الله في ذات الإنسان حب التملك، وهو فطرة أصلية في الإنسان على مدار التاريخ، لذلك دخل الشيطان على آدم من هذه الفطرة، واستغل هذه الفطرة، وقاد آدم إلى المعصية فقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

إن وقوع الشيوعية والاتحاد السوفيتي في هذين الخطأين هو الذي دمر الشيوعية وأنهى وجود الاتحاد السوفيتي.

من الواضح أن أية حضارة تعادي الفطرة، تكون نتيجة ذلك التدمير كما حدث في حضارة القرون الوسطى وروسيا الشيوعية، والآن نستطيع أن نجزم بأن الحضارة الغربية المعاصرة ستتدمر لأنها تعادي الفطرة في أمرين:

* إلغاء المقدس من حياة الناس، واعتبار الكون والإنسان والطبيعة مادة، ولا وجود لأية قيمة خارج المادة.

* إلغاء دور المرأة كزوجة وأم وكعائلة، وبالتالي إلغاء انقسام الناس إلى ذكر وأنثى، والدعوة إلى انقلاب الذكر إلى أنثى أو العكس والترويج لذلك.

إن وقوع الحضارة الغربية في معاداة الفطرة: فطرة العبادة والتعظيم والتقديس، وفطرة انقسام الكائنات البشرية إلى ذكر وأنثى، سيجعلها عرضة للدمار لأن أي مجتمع أو حضارة يعادي الفطرة، ستنتصر عليه الفطرة، وسيؤدي ذلك إلى دمار تلك الحضارة وذلك المجتمع.

***

المحتويات

المقدمة ٥

القسم الأول: بنية الحضارة الغربية ١١

مدخل إلى القسم الأول بنية الحضارة الغربية ١٢

الفصل الأول: المكونات التاريخية للحضارة الغربية ١٣

المبحث الأول: المكوّن اللاّديني..... ١٤

أولًا: أخطاء الكنيسة..... ١٤

الأولى: أخطاء علمية منهجية شرعية تتعلق بفطرة الإنسان وخلقته ١٥

الثانية: الأخطاء العلمية التي وقعت فيها الكنيسة ١٧

ثانيًا: الثورات ضد الكنيسة ١٨

المبحث الثاني: المكون العلمي الإسلامي ٢٣

الركيزة الأولى: ترجمة ونقل جميع العلوم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا:..... ٢٤

الركيزة الثانية: نقل مبدأ التجربة:..... ٢٤

الركيزة الثالثة: التواصل مع التراث اليوناني من خلال الترجمة الإسلامية له:..... ٢٤

المبحث الثالث: المكوّن الوثني..... ٢٥

الأولى: فكرة الصراع..... ٢٥

الثانية: دخول الأساطير اليونانية في الثقافة الغربية:..... ٢٦

المبحث الرابع: مكون الطبقة البرجوازية ٢٧

الخلاصة..... ٢٩

الفصل الثاني: مبادئ الحضارة الغربية ٣١
المبحث الأول: مبدأ العلمانية ٣٢
المحور الأول: محور تطور العلمانية ٣٢
المحور الثاني: محور أنواع العلمانية ٣٥
المبحث الثاني: مبدأ نسبية الحقيقة ٣٧
المبحث الثالث: مبدأ المادية ٣٩
المبحث الرابع: مبدأ تأليه الإنسان والشهوات ٤١
المبحث الخامس: مبدأ الليبرالية ٤٢
الأسس الفكرية لليبرالية ٤٢
المبحث السادس: مبدأ البراغماتية ٤٥
الفصل الثالث: النظام السياسي في الحضارة الغربية ٤٧
المبحث الأول: الدولة الديمقراطية ٤٨
المحور الأول: المبادئ الفكرية التي تقوم عليها الديمقراطية ٤٩
المحور الثاني: الآليات العملية التي تقوم عليها الديمقراطية ٤٩
المبحث الثاني: الدولة المدنية..... ٥٤
الفصل الرابع: النظام الاقتصادي في الحضارة الغربية..... ٦١
المبحث الأول: النظام الرأسمالي ٦٢
المبحث الثاني: النظام الشيوعي من خلال آراء كارل ماركس ٦٥
الأول: النظرةُ إلى الكون..... ٦٥
الثاني: النظرة إلى الاقتصاد ٦٥
الفصل الخامس: النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية..... ٧١
مدخل إلى النظام الاجتماعي في الحضارة الغربية ٧١
المبحث الأول: النسوية ٧٢

المبحث الثاني: النظرية الجنسية عند فرويد ٧٧
المبحث الثالث: لوائح حقوق الإنسان ٧٩
القسم الثاني: تأثيرات الحضارة الغربية على العالم العربي ٨٣
مدخل إلى القسم الثاني ٨٤
الفصل السادس: الصورة الأولى من التغريب: فرض نموذج الحضارة الغربية على العالم العربي ٨٥
المرحلة الأولى: تأثير الحضارة الغربية علينا في القرن التاسع عشر (التنظيمات في استانبول والتحديات في مصر) ٨٧
أولًا: الخلافة العثمانية وعاصمتها استانبول ٨٧
١ ـ تحديثات سياسية: ٨٧
٢ ـ تحديثات عسكرية: ٨٨
٣ ـ تحديثات تعليمية: ٨٩
٤ ـ تحديثات اقتصادية: ٨٩
ثانيًا: مصر في عهد محمد علي باشا ٩٠
أ ـ تحديثات عسكرية: ٩٠
ب ـ تحديثات تعليمية: ٩٠
ج ـ تحديثات زراعية: ٩٠
د ـ تحديثات في المواصلات: ٩٢
هـ ـ تحديثات سياسية: ٩٢
الاحتلال الإنكليزي لمصر عام ١٨٨٢ ..... ٩٣
أ ـ رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ ـ ١٨٧٣): ٩٣
ب ـ محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥): ٩٤
المرحلة الثانية: المشروع القومي العربي ـ الفرعوني للتغريب بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ـ١٩٥٢ ..... ٩٧

١ ـ تغييرات في الهوية والانتماء: ٩٩
٢ ـ تغييرات سياسية وقانونية: ١٠٠
٣ ـ تغييرات اقتصادية: ١٠١
ردود الفعل الشعبية على هذه التغييرات ١٠١
المرحلة الثالثة: تأثير الحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الثانية على مصر ١٠٥
آثار «المشروع الاشتراكي الماركسي» على الأمة والإسلام والعلماء والحركات الإسلامية: ١٠٩
المرحلة الرابعة: الصحوة الإسلامية والمشاريع المعطلة لها لصالح التغريب ١٩٧٠ ـ ٢٠١١ ..... ١١١
لماذا فشلت التجارب السابقة في الحكم؟ ١١٥
المرحلة الخامسة: الربيع العربي (٢٠١١ ـ ٢٠٢٢) نجاحات وتعثرات ١١٩
أولًا: أسباب الربيع العربي: ١١٩
ثانيًا: توصيف الربيع العربي ١٢٢
الفصل السابع: الصورة الثانية من التغريب: تطويع النص القرآني لصالح الحضارة الغربية ١٢٩
المبحث الأول: القراءات الحداثية: أنواعها، آلياتها، نتائجها ١٣٠
أولًا: خطة التأريخ أو الأرخنة ١٣٠
ثانيا: خطة التعقيل أو العقلنة ١٣٤
ثالثًا: خطة التأنيس أو الأنسنة ١٣٦
المبحث الثاني: الكاتب الحداثي محمد عابد الجابري ١٣٨
القراءات الحداثية في فكر محمد عابد الجابري ١٤٤
الخلاصة ١٤٦
المبحث الثالث: الكاتب الحداثي محمد شحرور ١٤٧
الصورة الثالثة من التغريب: إصدار أحكام خاطئة على تاريخنا وحضارتنا ١٥٧
مدخل إلى الصورة الثالثة من التغريب ١٥٧
الفصل الثامن: رد على دعوى الاستبداد في تاريخنا ١٥٩

مدخل إلى الرد على دعوى الاستبداد في تاريخنا ١٥٩
المبحث الأول: لماذا تحولت الخلافة من «الشورى» إلى «الوراثة»؟ ١٦٢
أولًا: المؤامرات الخارجية ١٦٢
ثانيًا: المؤامرات الداخلية ١٦٣
المبحث الثاني: تشريح الاستبداد: المستبد، ثقافة الاستبداد، جمهور المستبَدين ١٦٧
المبحث الثالث: المستبدون والمواجهة: موسى عليه السلام نموذجًا ١٧٢
المبحث الرابع: دور الدستور والمؤسسات المدنية في إبطال مفعول الاستبداد ١٧٩
دور الدستور في ضبط علاقة الحاكم بالمحكوم ١٨٠
مؤسسة العلماء ١٨٢
مؤسسة القضاة ١٨٣
مؤسسات شيوخ الحرف ١٨٣
مؤسسة الحسبة ١٨٤
مؤسسة الأوقاف ١٨٤
آفاق حول موضوع الاستبداد ١٨٦
الفصل التاسع: مفهوم الانحطاط: عرض وتفنيد ١٨٧
مالك بن نبي ١٨٨
محمد عابد الجابري ١٨٨
الجانب الجماعي والاجتماعي ١٨٩
الجانب العلمي ١٩٠
الجانب العقلي ١٩٠
الخاتمة ١٩٣

❊ ❊ ❊

من الكتب المنشورة للمؤلف

الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة وتقويم، ١٩٩٦م.

النكسة في بعدها الحضاري، ١٩٧٣م.

في مجال العقيدة: نقد وعرض، ١٩٨٦م.

جذور أزمة المسلم المعاصر: الجانب النفسي، ١٩٩٣م.

الجماعة في الإسلام: المشروعية والإطار، ١٩٩٥م.

التغيير في العالم الإسلامي: أزمة موضوعية أم ذاتية؟ ١٩٩٦م.

أبو الأعلى المودودي، فكره ومنهجه في التغيير: دراسة وتقويم، ١٩٩٦م.

الأمة الإسلامية بين القرآن والتاريخ: دراسة وتحليل، ١٩٩٩م.

إشكالية النهضة بين الفكر القومي العربي والصحوة الإسلامية، ٢٠٠٣م.

النفس المسلمة: صور من بنائها وأحوالها، ٢٠٠٥م.

القضية الفلسطينية: الواقع والآفاق، ٢٠٠٥م.

لماذا سقطت الخلافة العثمانية؟ قراءة في عوامل ضعف الأمة، ٢٠٠٨م.

صفورية والمجاهد والفتى، ٢٠١١م.

رؤى وآراء معاصرة: دراسة نقدية، ٢٠١٢م.

قراءات في شؤون الإسلام والأمة والحضارة: رؤية نقدية، ٢٠١٥م.

نظرات في الربيع العربي والثورة السورية، ٢٠١٧م.

آراء الدكتور سعد الدين العثماني في السنة والحكم: تحليل وتقويم، ٢٠١٩م.

الحركات الإسلامية والدعاة الجدد: عرض وتقويم، ٢٠٢١م.

***